احتياطات

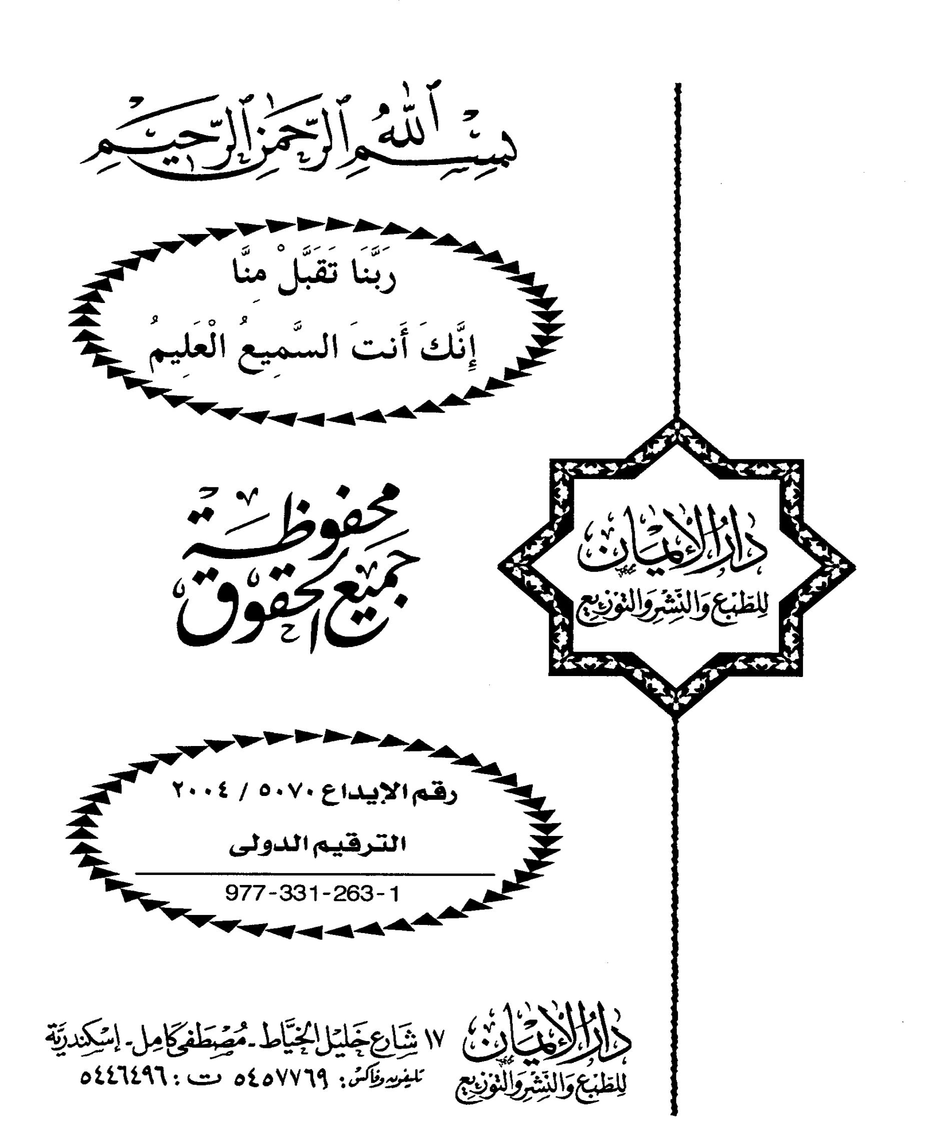
حتى لا ينحرف الأبناء

صور من أساليب النبي صلى الله عليه وسلم في التربية

عادل فتحي عبد الله

دار القمة
لتوزيع الكتاب والشريط الإسلامي
فاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٢٢٢٠٠٢

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩



بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا
إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع

رقم الإيداع ٥٠٧٠ / ٢٠٠٤

الترقيم الدولى

977-331-263-1

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾

[التحريم : ٦] .

قال رسول الله ﷺ :

« إن الله تعالى سائل كل راعٍ عمَّا استرعاه ، أحَفِظَ ذلك أم ضيَّعه ؛ حتى يسأل الرجَل عن أهل بيته »

[حديث صحيح، رواه النسائي وغيره، وصححه الألباني في « صحيح الجامع الصغير » برقم (١٧٧٥)، و« السلسلة الصحيحة » برقم (١٦٣٦)] .



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله سيدنا محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد:

يعتقد كثير من علماء النفس والتربية أن للسنوات الأولى من حياة الأبناء دوراً كبيراً في تكوين الشخصية لديهم، وأن ما يمارسه الآباء خصوصاً من سلوكيات، سواء تلك التي تأتي بصورة عفوية غير مقصودة، أو ما يكون منها موجَّهًا نحو الأبناء؛ هذه السلوكيات تُساهم وبدرجة كبيرة في رسم معالم شخصية الطفل.

والتربية الإسلامية قد تؤيد هذه النظرة بدرجة من الدرجات؛ ففي الحديث الشريف: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه**».

ويقول الشاعر:

وينشأ ناشئ الفتيان فينا على ما كان عَوَّدَه أبوه

ومع هذا فلا ينكر أبداً إمكانية تغيير السلوك، وتعديله، وتقويمه في المراحل التالية من العمر، لكن تظل كثير من العادات المكتسبة مبكرًا، تتحكم في الشخصية، وتصبح عصيّة على التغيير، إلاَّ أنْ ينال المرء رحمة من الله تعالى، حين يكون صادقًا، وجادًا في جهاد نفسه وتقويمها.

ولهذا كله كان التغيير في الصغر كالنقش على الحجر كما يقولون؛ لأن الصغير تستطيع تشكيله بسهولة، أما إذا تلوثت فطرته، وساءت أخلاقه؛ أصبح

من العسير تقويمه فيما بعد، ويصبح من الضروري عندئذ على كل أب وكل أم وكل مهتم بعملية التربية أن يعرف جذور انحراف الأبناء، وما يمكن أن يساهم في تشكيل الشخصية أو دفعها نحو الخير أو الشر، حتَّى يتبع الأول ويجتنب الثاني.

وكما كان الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان يقول: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني» [١]؛ فإن كثيراً من الناس اليوم والمربين يسألون عن الأسباب التي تكمن وراء فشل الأبناء أو انحرافهم، بغية تجنبها، والابتعادعنها والحذر منها.

وهذا الكتاب يبحث في بعض هذه الأمور مفسرًا إياها، ومحذرًا الآباء والمربين من اقترافها، ومجتهداً في بيان طرق علاجها؛ حتَّى يعصم الله أبنائنا بها من كل مكروه وسوء.

والله من وراء القصد، والحمد لله رب العالمين.

عادل فتحي عبد الله

---

(١) متفق عليه.

عامل الوراثة
ودوره في السلوك

إلى أي مدى يمكن أن تؤثر الوراثة في السلوك الإنساني؟ وهل يمكننا أن نعتبر مظاهر الانحراف لدى الشباب ذات أثر وراثي قد جبل عليه الفرد ولا يستطيع تغييره؟.

لقد كثر الكلام حول أثر العوامل الوراثية على السلوك الإنساني، واختلف علماء النفس حول مدى تأثير هذه العوامل على السلوك، وهل هناك فعلاً استعداد لدى بعض الأشخاص للجنوح؟ وهل تحمل الجينات في طياتها سلوكًا معينًا؟

إنه «ليس من المعقول أن نتوقع من الجينات التي تتركب من مواد كيميائية والتي تتفاعل في عمليات متعاقبة مع مواد كيميائية في البيئة أن تحمل سلوكًا أو وظيفة، ولكن الاستعداد أو القابلية لتكوين سلوك معين قد يرجع إلى بعض الاختلافات الوراثية الناشئة عن الجينات في حد ذاتها، فقد أثبتت الدراسات الحديثة أن بعض الوظائف أو السلوك التي يولد الفرد مزودًا بها هي نتيجة التكوين الچيني، وأن أي اختلال بها يرجع إلى عدم التوازن الچيني الذي يحدث نتيجة خلل كيميائي في هذا التكوين.

فصفة الغباء مثلاً، لا تنتقل عن طريق چين معين كالچين الذي يتحكم في لون العين، ولكن مقدار الذكاء يسلك في وراثته سلوك الصفات الكمية التي يتحكم فيها عدد [١] من الچينات ذات التأثر البسيط والمتجمع، والمتوازن بين مثل هذه الچينات العديدة، وكذلك التفاعل بينها وبين البيئة يحدد درجة ذكاء الفرد، ومعنى ذلك أن صفة الغباء تنشأ نتيجة اختلال في التوزان الچيني، وهذا

(١) في الأصل (عديد)، ولعلها خطأ في الطباعة.

الاختلال قد يرجع إلى نقص أو زيادة چين أو بعض الچينات، مما يقلل من الوظيفة الأساسية لمجموعة الچينات المتحكمة في ظهور صفة الذكاء.

ومع أن الچينات تلعب دورًا جوهريًا في تحديد الصفات الوراثية للفرد، إلاَّ أن عملها يتأثر بالبيئة، فقد يتغير سير النمو تغيرًا كبيرًا إذا تغيرت بعض العوامل في البيئة التي توجد فيها سواء كانت بيئة الرحم أو البيئة الخارجية »(١).

ومما لا شك فيه أن العوامل الوراثية تؤثر في تكوين الشخصية من حيث الصفات والطبائع والخصائص، مثل ميل بعض الأشخاص مثلاً إلى الدعابة أو الفكاهة، وميل البعض الآخر إلى الاكتئاب، فهناك مثلاً بعض العائلات تتميز بروح الفكاهة والدعابة، كما أن هناك بعض العائلات يتَّسمون بالقابلية للاكتئاب.

كما أن الوراثة لا شك، لها تأثير على الغباء والذكاء، وبعض مظاهر الاختلال العقلي، وهذا كله مما لا شك فيه لا ينكره أحد، لكن هل يمكن أن تؤثر الوراثة مثلاً في سلوك إنسان فتجعله منحرفًا، أو تجعله يسلك سلوكًا شاذًا، وإذا كان هذا صحيحًا فما مقدار هذا التأثير؟

يرى أوجست إيكهورن أن العامل الوراثي يعطي استعدادًا للبعض كي يسلك سلوكًا منحرفًا دون غيره، وهذا الاستعداد لابد من وجوده كي يسلك مثل هذا السلوك، ومع أن هذا السلوك لا يتأتَّى ولا يظهر إلاَّ إذا أُتيحت له الظروف المناسبة، فيقول:

« عندما كنت أسأل الآباء عن كيفية تعليلهم لسلوك أبنائهم غير الاجتماعي، فإني كنت أتلقى عادة الجواب التالي، وهو: « أن هذا السلوك غير الاجتماعي راجع إلى إخوان السوء واللف والدوران في الشوارع » نعم هذا صحيح إلى حد بعيد، لكن آلاف الأطفال الآخرين شبوا ونموا في مثل هذه الظروف غير

(١) « السلوك الإنساني » أ. د انتصار يونس، ط دار المعارف (١٩٧٢م).

المناسبة، ومع ذلك لم يجنحوا في سلوكهم؛ فلابد إذن من أن يكون في الطفل نفسه شيء تعمل البيئة على إظهاره في شكل جنوح، فإذا كنا حتَّى هذه اللحظة نسمي هذا الشيء غير المعروف لنا باسم «استعداد للجنوح» فلدينا إذن هذا العامل الذي بدونه لا يكون للبيئة غير الصالحة أي قوة على الطفل، ونحن نميل إلى الاعتقاد أن هذا الاستعداد وراثي، غير أن التحليل أوضح لنا أن الوراثة لا تستطيع أن تفسر كل شيء، وأن للأحداث الأولى في حياة الطفولة أهمية بالغة في تحديد النمو الذي يلي ذلك، وهذا الاستعداد للجنوح لا يكون أمرًا نهائيًا لا مفر منه عند الولادة، بل تحدده العلاقات الانفعالية، أعني التجارب الأولى التي تفرضها البيئة على الطفل.

وليس معنى ذلك أن كل طفل يولد مزودًا بهذا الاستعداد للجنوح لابد أن يصبح جانحًا، أما صحبة السوء، وأثر الشارع، وما أشبه ذلك فإنها تلعب أيضًا دورها، مع أنها ليست الأسباب الأصلية للجنوح، بل مثيرات مباشرة أو غير مباشرة له» [(١)].

وهذا الرأي المذكور من أن هناك استعداد لدى بعض الأشخاص للجنوح، وأن هذا الاستعداد وراثي، هذا الرأي كان سائدًا قديمًا، لكن العلم الحديث لا يؤيد هذا الرأي ؛ **حيث يقول ماندر:**

«ويتجه علم النفس الحديث الآن اتجاهًا يخالف ذلك الرأي القديم الذي لا يقوم على أسس علمية صحيحة، وهو وراثة الخلق الفردي، ويرى الأستاذ (وليم جيمس) أن (٩٩٪) تقريبًا من سلوك البالغ – ويعني بالسلوك الفكر والعاطفة – خاضع للعادة، يعني ميل الإنسان لأن يشعر أو يفكر في الحياة بطرق خاصة أدت إليها تجاربه السابقة (فالعادة إذن طبيعة ثانية) وهي كما قال دون ولنجتون عشرة

(١) «الشباب الجامح» أوجست إيكهورن، ترجمة / سيد محمد غنيم، مراجعة د/ إسحاق رمزي ، ط دار المعارف.

أمثال الطبيعة، وهي كذلك على الأقل من حيث أهميتها في حياة البالغ؛ لأن العادات التي اكتسبناها من تجاربنا تكون في ذلك الوقت قد طغت على معظم الدوافع الطبيعية التي كانت موجودة من الأصل، بل تكون قد خنقتها خنقًا، ومنذ أن أدلى جيمس بهذا الرأي تجمعت لدى علماء النفس كثير من الشواهد الجديدة القوية، والأدلة الدامغة التي تؤيد وجهة نظره هذه» [١] .

ويؤكد هذا الرأي الدكتور عبد الرحمن عيسوي حيث يقول : « .. فالسلوك الشاذ سلوك متعلم ومكتسب وليس وراثيًا ولا نظريًا، وليس ناتجًا عن خلل في وظائف غدد الفرد» [٢] .

ومع أن كل الآراء تقريبًا تتفق في أن السلوك الشاذ أو المنحرف أو الجانح ليس وراثيًا، بل مكتسبًا من البيئة والمجتمع، إلاَّ أن البعض يدعي أن هناك استعدادًا للجنوح لدى بعض الأشخاص دون البعض الآخر وهذا الاستعداد وراثي، ومعنى هذا الكلام أن الأصل عند بعض الأشخاص الشر وليس الخير، وهذا الكلام يخالف ظاهر النصوص الشرعية، حيث إن ظاهرها يؤكد أن الأصل في الميول والاتجاهات التي يولد بها الطفل الخير وليس الشر، يعني أن الإنسان خيّر بطبيعته وليس شريرًا، والشر يأتيه عن طريق المجتمع والتربية.

يقول رسول الله ﷺ : **«كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه»** [٣] .

ولكن ماذا تعني كلمة الفطرة؟

« الفطر : الابتداء، والاختراع. والفطرة: الحالة منه كالجلسة والركبة، و **«كل مولود يولد على الفطرة»** المعنى أنه يولد على نوع من الجبلة والطبع المتهيئ

---

(١) «علم النفس في الحياة» ماندر ، ترجمة نظمي خليل، دار الكتب المصرية (١٩٣٨م) .

(٢) «علم النفس في الحياة المعاصرة» د/ عبد الرحمن عيسوي، ط دار المعارف (بدون تاريخ) .

(٣) رواه البخاري ومسلم وغيرهما، واللفظ هنا للبخاري .

لقبول الدين، فلو ترك عليها لاستمر على لزومها، وإنما يعدل عنه من يعدل لآفة من آفات البشر والتقليد، ثم تمثل بأولاد اليهود والنصارى في اتباعهم لآبائهم والميل إلى أديانهم عن مقتضى الفطرة السليمة.

وقيل: معناه كل مولود يولد على معرفة الله والإقرار به » [1] .

« **ويقول ابن القيم** : ليس المراد بقوله يولد على الفطرة أنه خرج من بطن أمه يعلم الدين؛ لأن الله يقول: ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ** ﴾ [النحل: ٧٨]، ولكن المراد أن فطرته مقتضية لمعرفة دين الإسلام ومحبته، فنفس الفطرة تستلزم الإقرار والمحبة وليس المراد مجرد قبول الفطرة لذلك ؛ لأنه لا يتغير بتهويد الأبوين مثلاً بحيث يخرجان الفطرة عن القبول، وإنما المراد أن كل مولود يولد على إقراره بالربوبية، فلو خلي وعدم المعارض يعدل عن ذلك إلى غيره، كما أنه يولد على محبة ما يلائم بدنه من ارتضاع اللبن حتَّى يصرفه عنه الصارف، ومن ثم شبهت الفطرة باللبن، بل كانت إياه في تأويل الرؤيا. والله أعلم .. »[2] .

إذًا ظاهر الحديث الشريف – وكما أكد العلماء – يُوضح أن الأصل في الإنسان أن يولد خيّرًا، على الفطرة التي هي الدين الحق، والتي هي الإسلام، ويؤكد ذلك قوله تعالى : ﴿ **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ** ﴾ [الروم: ٣٠].

قال القرطبي : « واختلف العلماء في معنى الفطرة المذكورة في الكتاب والسنة على أقوال متعددة منها الإسلام ، قاله أبو هريرة وابن شهاب وغيرهما،

---

(١) « النهاية في غريب الأثر » ابن الأثير (٣ / ٤٥٧) ، ط دار الفكر – بيروت (١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م) تحقيق / طاهر أحمد الزواوي – محمود محمد الطباخي .

(٢) « فتح الباري » (٣ / ٢٤٩) للحافظ ابن حجر العسقلاني، ط دار المعرفة بيروت (١٣٧٩هـ) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، محب الدين الخطيب .

قالوا: وهو المعروف عند عامة أهل السلف من أهل التأويل، واحتجوا بالآية وحديث أبي هريرة [١]، وعضدوا ذلك بحديث عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال للناس يومًا: «**ألا أحدثكم بما حدثني الله في كتابه؟ إن الله خلق آدم وبنيه حنفاء مسلمين وأعطاهم المال حلالاً لا حرام فيه، فجعلوا مما أعطاهم الله حلالاً وحرامًا..**» الحديث، وبقوله ﷺ: «**خمس من الفطرة...**» فذكر منها قص الشارب وهو من سنن الإسلام.

وعلى هذا التأويل فيكون معنى الحديث أن الطفل خُلق سليمًا من الكفر على الميثاق الذي أخذه الله على ذرية آدم حين أخرجهم من صلبه، وأنهم إذا ماتوا – قبل أن يدركوا – في الجنة أولاد مسلمين كانوا أو أولاد كفار...» [٢].

وقال الطبري: «﴿ **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا** ﴾ يقول: صنعة الله التي خلق الناس عليها، ونصبت ﴿ **فِطْرَتَ** ﴾ على المصدر من معنى قوله: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا** ﴾ وذلك أن معنى ذلك فطر الله الناس على ذلك فطرة (يعني على الإسلام)، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل..» [٣].

ويؤكد الحافظ ابن كثير هذا المعني فى تفسير قوله تعالى: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا** ﴾ [الروم: ٣٠]، **فيقول**:

«يقول تعالى فسدد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملّة إبراهيم الذي هداك الله لها، وكملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها؛ فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إله غيره، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿ **وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ** ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

---

(١) الآية المذكورة سابقًا، والحديث المذكور آنفًا «**كل مولود يولد على الفطرة..**».

(٢) «تفسير القرطبي» (١٤/٢٥)، ط دار الشعب (١٣٧٢هـ)، تحقيق / أحمد عبد العليم البردوني.

(٣) «تفسير الطبري» (٢١/٤٠) ط دار الفكر ببيروت (١٤٠٥هـ).

وفي الحديث: «**إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم..**» ، وسنذكر في الأحاديث أن الله تعالى فطر خلقه على الإسلام، ثم طرأ على بعضهم الأديان الفاسدة كاليهودية والنصرانية والمجوسية...» [١] .

ولو كانت الوراثة هي الأصل في تكوين السلوك الإنساني، وفي تطبع الشخص بطباع وخصائص معينة، لما كان هناك معنى للتربية، ولا حتَّى كان هناك معنى للحساب والجزاء في الآخرة، إذْ كيف يُحاسب الشخص على سوء خلق قد جُبل عليه، وطبع على الاستمساك به.

لكن العقل والحكمة يؤكدان على أهمية العادة في تكوين الطباع، ودور التربية العظيم في التنشئة والتكوين الخلقي، إنما مسألة أن فلانًا هذا طبعه مثلاً فهي حجة الضعفاء، وتواكل الكسالى.

وعن أثر العادة في تكوين *الشخصية والطباع* يقول جون ديوي - أحد أبرز علماء *التربية* في *العصر الحديث* - : «كل العادات تدفع إلى القيام بأنواع معينة من النشاط، وهي تكون النفس، وهي تحكم قيادة أفكارنا، فتحدد ما يظهر منها، وما يقوى، وما ينبغي له أن يذهب من النور إلى الظلام» [٢] .

حجج باطلة:

حين يفشل البعض، أو يهمل في تربية أبنائه، تجده يتذرع ويتحجج ببعض الأمور الوراثية؛ وذلك بغية أن ينفي التقصير عن نفسه، فيُرجع الخطأ لظروف قدرية خارجة عن إرادته؛ ظنًا منه أنه بذلك ينفي عن نفسه التقصير أو الفشل، أو يتذرع بتلك الأمور بغية التواكل وعدم بذل المجهود في الإصلاح، فطالما أن الولد مثلاً (يتصرف بتهور مثل والده) فلا ينبغي أن نقاوم تهوره؛ لأن هذا طبعٌ

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٣٤) ، ط دار الفكر - بيروت (١٤٠١هـ) .

(٢) «مشكلات الأطفال اليومية» د/ دجلاس توم، ترجمة د/ إسحق رمزي ط دار المعارف (١٩٥٨م) .
John Deweys Human Nahture. pp (24 - 25) (New york).

فيه.. وهكذا يُخلي كل منّا مسؤوليته ليتنصّل من المسؤولية الملقاة على عاتقه تجاه من يقوم بتربيتهم.

إن إلقاء اللوم على العوامل الوراثية يجعلنا لا ننظر للأمر بدقة، ولا نقوم بمعالجة الأسباب الموضوعية له بحيدة ونزاهة، إننا إذ نتذرع بتلك الحجج الباطلة ننسى أو نتناسى قانونًا مهمًا جدًا، وضعه الله سبحانه وتعالى للتغيير، ألا وهو قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد: ١١] . فإذا لم يكن تغيير ما بالنفوس أمرًا واردًا، فكيف يكون التغيير؟!!.

لقد وهب الله تعالى نفوسنا المقدرة الكاملة على التغيير، وعلى التخلق بمكارم الأخلاق، وعلى مقاومة الأهواء والمفاسد، قال تعالى: ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠)** ﴾ [الشمس: ٧ – ١٠]، وكيف يكون الفلاح إن لم يكن يستطيع المرء إصلاح نفسه؟! .

إذًا لابد من أن هذه النفس قابلة للتغيير والإصلاح والتبديل، وحين نعلم هذا، يجب على الأمهات والآباء أن يجدّوا ويجتهدوا في تربية أبنائهم، وينسوا تمامًا الجذور العائلية التي قد تدفع بعضهم للتشاؤم بخصوص مستقبل أولاده، ولا نلتمس الأعذار لأخطاء الأبناء بحجة أنهم يشبهوننا مثلاً عندما كنّا صغارًا مثلهم، **هذا ما يؤكده د/ دجلاس توم حين ينصح *الوالدين* بقوله :**

«ومن الطبيعي أن يكون للوالدين في كثير من الأحيان آراء تتسم بالجبرية والتشاؤم فيما يتعلق بالوراثة؛ إذْ يميل كثير منهم إلى إرجاع ما صادفوه وما يصادفونه في الحياة من ضروب الفشل إلى ما فطروا عليه من عجز في النواحي الاجتماعية أو الذهنية أو الخلقية، كما أنهم ينحون إلى تفسير نقائص أبنائهم

أيضًا على ضوء الوراثة، فإذا كان الطفل مغلق الذهن مثلاً أو متأخرًا في علوم الرياضيات لم يبعد أن تفسر أمه ذلك بقولها : «لم يفلح أحد من أسرتي في المدرسة من قبل» .

كما أن الناس يكتفون في تفسير كثير من خصائص أبنائهم، وأشكال الشذوذ لديهم بالقول إن أحد أسلافه كان مصابًا بعين الأمر، وقد تلتمس الأم المكدودة المرهقة الأعصاب التي يعسر عليها قيادة ابنها (الشقي) المسرف في الحركة عزاءً كبيرًا في تفسير عاداته الذميمة بقولها: «إنه طالع لأبيه لا يمكن أن يسمع لأحد كلامًا» .

كما أن الأم التي أخفقت في تكوين عادات الإخراج المناسبة عند طفلها، قد تلتمس له عذرًا في تبوله على نفسه بأنها كانت مصابة بنفس العلة أيام طفولتها، هذا وإن التأفف من بعض صنوف الطعام، ونوبات الطبع الحادة، وكثيرًا من خصائص الشخصية الكريهة غالبًا ما يلتمس تفسيرها جميعًا في أنها قد تنقلت من الآباء إلى الأبناء، وهذا الموقف الذي يتخذه الآباء بشأن الوراثة قد يرجع إلى أنهم يتخففون من التبعة الملقاة عليهم، فيما يتعلق بنقائص الشخصية، وعوج الخلق فيهم هم، وفي أبنائهم كذلك، وهي وسيلة لحماية أنفسهم من النقد، وذريعة يردون إليها خيبتهم.

وقد وفق (جلويك) في تبيان الخطر الذي يتعرض له الأطفال إذا اصطنع الوالدان هذه الطريقة الخادعة يواسون بها أنفسهم .قائلاً في ذلك:

«قد يلحق الأطفال أذى خطير بسبب المبالغة التي لا مبرر لها فيما يمكن أن تؤدي إليه الوراثة، إذا أغفلنا ما ينبغي من حيطة لابد منها في هذا الشأن؛ نظرًا لمعرفتنا المحدودة عن هذا الموضوع؛ ذلك لأن الوالد أو المعلم إذا لم يلمس في سلوك الطفل سوى صورة لإحدى الخصائص التي كان يتميز بها واحد أو أكثر

من أسلافه، تعرض بذلك لإغفال العوامل المباشرة التي أدت إلى نشوء هذه الخاصية، لهذا يعتبر الإيمان التام بالوراثة والقسمة، أمرًا يدفع إلى اليأس والخيبة، بدلاً من دفعه إلى محاولة إصلاح الأخطاء وتقويمها، هذا إلى أن موقف الوالد القلق أو المعلم الحانق كفيل بأن يزيد الآثار التي تؤذي شخصية الطفل بالإضافة إلى العوامل التي قد تكون فيها من قبل» (١) .

إذًا الأخلاق بصفة عامة لا يمكن اعتبارها أمورًا وراثية، لكنها في الأصل عادات وتربية، فمن تعود الكرم في الصغر، ونشأ في بيت يعتز بالكرم،فلا شك أنه سيخرج كريمًا، ولا دخل للوراثة في هذا الجانب، ومن تعود البخل والشح من أهله وممن يعرفهم، وتربى على ذلك، فلابد أن يخرج بخيلاً شحيحًا، إلاَّ أنْ يتغير سلوكه من بعد؛ نتيجة عوامل خارجية أخرى تؤثر فيه بدرجة كبيرة، كأن يتعرف مثلاً على أصحاب ذوي اتجاهات معينة فيتأثر بهم، ويتطبع بطبائعهم، ويتمثل أخلاقهم، لكن في الغالب الأعم الطبع يغلب التطبع، فليس من نشأ وترعرع مثلاً على الكرم سيصبح مثل من نشأ على البخل ثم عرف فضل الكرم فتطبع به.

إن تربية الأبناء منذ الصغر، وتعويدهم على الأخلاق الكريمة، وعلى ممارسة شعائر الدين الحنيف، هو الأمر الذي ينبغي أن نوليه اهتمامنا، ولا نعول كثيرًا على الأخلاق الموروثة، أو على الطباع المتأصلة في العائلة مثلاً - على حد قول البعض - .

«فالخصائص العقلية والصفات الخلقية التي تدفع إلى النجاح أو الخيبة، هي إلى حد كبير ألوان من العادات، والطموح والحرص، والمثابرة، والعدالة، والنظام، والكسل، والأثرة، والإهمال، وغير هذا أو ذاك من الصفات الأخرى التي لا تقع

---

(١) عن «مشكلات الأطفال اليومية» د/ دجلاس توم .
Bernard Clueck, Hygien Vol 8 , No 3 .

تحت الحصر، والتي تقيم الشخصية، ليست من الأمور الموروثة على أي وجه من الوجوه؛ فقد نوهب ميولاً إلى هذه الاتجاهات المختلفة غير أنه إذا لم تقم البيئة بتكوينها، وإنمائها بقيت عاجزة عن التأثير في شخصية أي فرد منَّا وتوجيهها»(١) .

وهذا لا ينفي وجود صفات معينة لدى البعض، هذه الصفات تكون موروثة، مثل سرعة الغضب مثلاً، أو هدوء الطبع، أو غير ذلك، مع العلم أن مثل هذه الصفات جزء كبير منها يكتسب في المراحل الأولى من الطفولة، ومع العلم أيضًا أن تأثير مثل هذه الصفات يظل محدودًا، ومحكومًا بشخصية الفرد نفسه، حسب ما تعوّد.

كما أن مثل هذه الصفات ليست كافية بذاتها لدفع الشخص نحو الانحراف، بل لابد من العامل التربوي المستمد قطعًا من الخارج، والمتمثل في الوالدين أولاً ثم الأقارب، ويأخذ الأصدقاء المرتبة الأولى في التأثير في بعض المراحل العمرية للشخص كما سيذكر لاحقًا إن شاء الله .

---

(١) المصدر السابق.

جذور الانحراف

افتقاد الحب والرعاية في الصغر :

يجمع علماء النفس، والمهتمون بالطفولة عمومًا، على أمر واحد مهم جداً، ألا وهو أهمية السنوات الأولى في تكوين شخصية الطفل، وأن ما يتلقاه الطفل في هذه السنوات يكاد يُشكل شخصيته المستقبلية، ويؤكدون على أهمية التعرف على طبيعة الطفل، وخصائص المرحلة التي يمر بها؛ من أجل تعامل أفضل مع الطفل، وفهم لشخصيته.

ومما كثر الحديث عنه في الدوائر المتخصصة بالطفولة - النفسية منها والصحية- موضوع الحب والرعاية للطفل في سنواته الأولى بصفة خاصة، هذا الحب الذي إن افتقده الصغير بدأت المتاعب تطرق حياته؛ فافتقاد الحب يمكننا اعتباره أحد أهم الجذور الرئيسية للانحراف، ولا نظن أن أحداً يختلف معنا في مقولة « فاقد الشيء لا يُعطيه » وإنها تنطبق على عالم المعنويات والحقائق والأفكار كما تنطبق في عالم المادة، فالطفل الذي افتقد الحب لا نظن أنه سيمنح غيره الحب، وأنه لا يكفي لرعاية الطفل رعايته ماديًا فحسب، بل لابد من الرعاية المعنوية، بل وهي الأهم.

يقول د/ اشلي مونتاجيو - وهو استاذ علم نفس امريكي - :« لقد أظهرت دراسة الأطفال الذين أمضوا حياتهم الأولى في المستشفيات أو المؤسسات الأخرى أن الطفل يحتاج إلى أشياء أخرى أكثر من إرضاء حاجاته الجسمية، لقد كان هؤلاء الأطفال يطعمون ويستحمون ويُعنى بهم بأحسن طريقة علمية سليمة، ولكن كان ينقصهم الرعاية الشخصية الدفيئة، التي تقدمها الأم عادة لطفلها، كان ينقصهم الشعور بالمساعدة والتشجيع، كان ينقصهم الشعور بأن هناك من يحتاج إليهم، وباختصار كان ينقصهم الحب الحقيقي.

هؤلاء الأطفال كانوا كلما كبروا صاروا غير اجتماعيين، يضمرون العداء للمجتمع، وكانوا غير مطمئنين يملؤهم الخوف والقلق، وكانوا في معظم الحالات لا يستطيعون منح الحب لغيرهم» [١].

ومشكلة الطفل الذي يُحرم الحب في المهد أنه يخرج للمجتمع بشخصية غير سوية، هذه الشخصية قد تكون حقودة أو عدائية، أو رافضة للمجتمع ولأدواته؛ وذلك لأنه يُحدث نفسه بأنه لم يرَ خيراً من المجتمع، ولم يشعر مرة بأن أحداً يحبه أو يخاف عليه، أو يرعاه، فلماذا يحترم هو قيود المجتمع الأخلاقية أو غيرها؟! ثم إن نظرته العدائية للمجتمع تجعله يتشكك في نوايا الغير ولا يصدق ولا يثق في أحد، فيحسب كل صيحة عليه، وتتبلور عنده الحياة على أنها مؤامرة ضده من قبل الغير الذي يريد أن يستخدمه لمصلحته الخاصة، فيرى الحياة بمنظار أسود.

إن الحب والعطاء يجعل من الطفل إنساناً سوياً، متميزاً في أخلاقه وعاطفته، يجعله شخصاً إيجابياً ، بناءً في المجتمع، الحب الذي يجب أن نمنحه لأطفالنا يجب ألاّ يخضع للمساومة، بمعنى أن لا نقوم بتهديد الطفل بعدم الحب إن لم يلتزم بالسلوكيات المفروضة.

«إن العقاب عادة وسيلة سلبية للتدريب، ولكن التهديد بالحرمان من الحب يؤدي إلى ضرر إيجابي، فسيكوّن أحمد فكرة مشوهة عن الحب ويراه شيئاً يمكن أن يمنح أو يمنع تبعاً للإرادة، وأن ذلك الحب لا يعتمد على شخصيته بالذات، وإنما على ما يقوم به في لحظة معينة، وقد يخشى أن ينتهي هذا الحب في يوم من الأيام، كما سيتكون عنده أيضاً فكرة مشوّهة عن قيمة بعض الفضائل، فإن هناك شيء ثمين كالحب يعتمد على النظام والطاعة الجامدة للمسؤولين أكثر من الشجاعة الأدبية أو الشفقة نحو الآخرين» [٢] .

---

(١) «كيف نساعد الأطفال على تنمية قيمهم الخلقية» أشلي مونتاچيو.

(٢) المصدر السابق .

إن الطفل عندما تقول له: إنني لن أحبك إذا فعلت كذا، يظن أنه سيفتقد منك الحب والرعاية إلى الأبد، إنه لا يفهم كلامك على أنه تهديد فقط، فإذا وقع في الخطأ تصور أنك لا تحبه فعلاً، إنك توقعه في أزمة، وخير لك أن تقول له: إنك إن فعلت كذا – مثلاً – ستؤذي نفسك، واحذر أن تقع في هذا الأمر، خير لك أن تبين له عاقبة أمره، حين يوشك أن يقع في الخطأ من أن تهدد بسحب الحب أو الحنان، التهديد بسحب الحب لا يناسب الطفولة، ولا يفهمه أطفالنا.

وقد يقول قائل: وهل يوجد أحد منَّا لا يمنح أولاده الحب والرعاية؟!

نقول: إن بعض الآباء أو الأمهات الذين لا يدركون طبيعة مرحلة الطفولة، والذين يسأمون ويتضجرون من أبنائهم، ومن تصرفاتهم التي قد تتسم بالحمق في كثير من الأحيان، هؤلاء الآباء وأولئك الأمهات قد يصدر منهن سلوك يتَّسم بالقسوة في معاملة الأبناء، هذا السلوك قد يفسر عند الأبناء بعدم الرغبة أو عدم الحب.

كما أن هناك من الآباء ومن الأمهات من ليس لديهم تحمل للمسؤولية، بل إن البعض منهم يتنصل من مسؤولية تربية أبنائه، ويقوم بتوزيع أبنائه معظم الوقت بعيداً عن البيت، عند الجيران مثلاً، أو عند أحد الأقارب، فكيف يشعر هؤلاء الأطفال الذين يقضون معظم أوقاتهم بعيدين عن الأبوين؟ كيف يشعرون بالحب من والديهم؟.

هذا فضلاً عن تأثر هؤلاء الأطفال بغيرهم، وقد تنتقل إليهم أخلاق غير مرغوبة ممن يقضون معظم الوقت لديهم، هذا إلى جانب أن بعض الآباء لا يرعون شؤون أبنائهم بالطريقة المطلوبة، فلا يلبون رغباتهم مثلاً في شراء أشياء ضرورية لهم، مع العلم بأنهم قادرون على شرائها، مما يشعر الأطفال بنوع من الذلة، يكون دافعًا لسلوكيات منحرفة لديهم فيما بعد، إن إهمال رعاية الطفل من الجانب المادي لهي دليل على عدم حب الوالدين له.

وهذا لا شك يترجم بهذه الصورة لدى الطفل، خصوصًا في مرحلة المراهقة التي يبدأ فيها الطفل بالاهتمام بمظهره، وبنفسه، وهذا بعكس ما إذا كان الوالدان فعلاً لا يستطيعان تقديم بعض الأمور المادية والتي قد تعتبر ضرورية للطفل، فإنه يشعر بذلك، بل ويتعاطف مع الوالدين؛ لأنه يعلم أنهما لو كانا يقدران عليها لفعلا له ما يريد، وينبغي على الوالدين أن يفهما طفلهما مثل هذا الأمر، وأن يدفعاه نحو التغلب على الظروف، ونحو تحمل المسؤولية، والعمل بجد واجتهاد، ويحكيا له عن أطفال نشأوا في ظروف أصعب من ظروفه بكثير، لكنهم استطاعوا بالصبر والمثابرة، والجهاد في الحياة، استطاعوا بالتوكل على الله حق توكله أن يتفوقوا، وأن يحققوا أرقى الدرجات العلمية والأدبية.

حرمان الطفل من المصروف المناسب :

من حق الطفل أن يحصل من والديه، أو ممن يعوله على مصروف مناسب، لمن هم في مثل سنه، والطفل الذي لا يعطى مصروفًا، أو يعطى مصروفًا أقل بكثير من متطلباته، قد يلجأ إلى أساليب غير مشروعة لتلبية رغباته، أو للظهور أمام أقرانه بالمظهر اللائق؛ ذلك لأن شعور الحرمان الذي يشعر به الطفل، شعور قاسي، يُحاول جاهداً أن يدفعه عن نفسه، فقد يلجأ مثلاً إلى الكذب على زملائه؛ بغرض أن ينفي عن نفسه ما يشعر به من عوز وحاجة.

كما قد يلجأ إلى السرقة؛ لامتلاك أشياء ضرورية بالنسبة له، لكنه لا يستطيع الحصول عليها بالطريق الشرعي الصحيح؛ فمثلاً الطفل الذي يهمل والداه في تلبية متطلباته المدرسية، قد يلجأ لسرقة بعض الأدوات من زملائه، كذلك إن لم يعطَ مصروفًا مناسبًا قد يلجأ لسرقة بعض (البسكوتات) مثلاً من أقرانه، أو قد يلجأ إلى القسوة والعنف؛ للاستيلاء على حاجة الغير، إن كان له القدرة على ذلك، ووجد العوامل والظروف المناسبة، هذه الظروف والتي قد تختلف من بيئة لأخرى، وقد تساعد عليها عوامل خارج نطاق الأسرة، بعيدة

عن الوالدين.

ومما يولد لدى الطفل الشعور بالحرمان، وجود هذا الطفل وسط مجموعة من الأطفال يختلفون عنه في الوسط الاجتماعي والاقتصادي، وعلى سبيل المثال الأب الذي يلحق ابنه بإحدى المدارس الخاصة المرتفعة المصاريف، ثم هو يدفع مصاريف المدرسة بالكاد، ومستواه المادي لا يرقى لمستوى أولياء أمور من هم في مثل هذه المدرسة، هذا الأب بالتأكيد لن يعطي ابنه المصروف المناسب، والذي يحصل عليه أقرانه، ومن ثم سيشعر الطفل بالفرق الواضح، والتباين الكبير بينه وبين أقرانه، فلا هو يستطيع تقليدهم أو مجاراتهم في سلوكيات الإنفاق، ولا يستطيع أن ينقطع عن التعامل معهم، وسيشعر بمدى حاجته بالمقارنة بزملائه.

إن وجود الطفل في محيط طلابي قريب من مستواه يساعد على نشأته نشأة صحية سليمة، بعيداً عن المشاعر السلبية التي تؤثر على نفسيته بالسلب، وتُصيبه ببعض المشكلات النفسية، والتي قد لا يدركها الوالدان، لكن قد تظهر آثار هذه المشكلات في أمور أخرى، كالتأخر الدراسي مثلاً أو الميل إلى العدوان والتخريب، أو إكثار المشاغبة داخل الفصل المدرسي، أو غير ذلك من المشكلات، والتي قد يعجز المعلم والوالد في علاجها، وهي في الأصل ليست إلاَّ أعراضًا لمشكلات نفسية بداخل الطفل، تحتاج إلى الغوص في أعماق الطفل للبحث عنها وعلاجها، وقد يكون سببها الوالد؛ لأنه دفع طفله للعيش في محيط مرتفع كثيراً من الناحية المادية عن محيط ومستوى طفله؛ فالتقارب في المستوى المادي بين الزملاء مطلوب خصوصًا في المراحل الأولى للطفل، والتي لا يدرك فيها الطفل كثيراً من المعاني اللازمة؛ لكي يستوعب مثل هذه الأمور.

إن كثيراً من المدارس في المراحل الأولى تفرض على تلاميذها زيًا واحدًا؛ حتَّى يبدو المظهر الخارجي واحداً، وحتى لا يمثل التباين فيه نوعًا من التميز بين التلاميذ وبعضهم البعض، إلاَّ أن المظهر الخارجي ليس إلاَّ أحد العوامل التي تشعر

بالتميز، بيد أن هناك عوامل أخرى قد توحي بهذا الأمر، مثل الفارق الهائل في المصروف المعطى لأحد الطلاب في هذه المرحلة عن بقية زملائه، وهذا ما ننبه عليه، بأن يؤخذ في الحسبان، من قبل ولي الأمر؛ لأن هذا الأمر لن تستطيع المدرسة التحكم فيه، وليس من سلطاتها، وهو أمر نسبي، ولكن كل والد يعرف ما يحتاجه بالضبط ابنه، وما يحتاجه من هم في مثل سنه، وليحذر الأب من البخل والشح على ولده؛ فإن عاقبته وخيمة.

المصروف الزائد عن الحد :

وكما أن المصروف القليل الذي لا يكاد يفي بحاجات الطفل، يعد دافعًا له نحو السلوك المنحرف؛ فإنه وبنفس الدرجة يمثل إعطاء الطفل مصروفًا زائدًا عن الحد أحد أهم عوامل الانحراف السلوكي للطفل.

إن إعطاء الطفل مصروفًا زائدًا بدرجة كبيرة يعوده الإسراف، واللامبالاة، وعدم تقدير أهمية المال، أو تقدير قيمته، كما يشعره بالتميز الكبير عن زملائه، ويولد لديه إحساسًا بالتباين والفرق الواضح، مما يدفعه لسلوكيات سلبية، تجعله يشعر بالزهو والافتخار، وكل هذه الأمور ليست في مصلحته، وإن كبرت معه، فسوف نجد شخصية غير سوية، شخصية إن عصمتها الظروف من الانحراف، فستكون شخصية على الأقل غير محبوبة من المحيطين؛ لأن الناس غالبًا لا تحب الشخص المتكبر، ولا المتعالي عليهم، هذا فضلاً عن أن التكبر في حد ذاته عائق كبير للشخص في طريق حصوله على العلم وغيره من القيم العليا والمثل.

ويكفي أن الكبر أحد الذنوب التي يستحق صاحبها دخول النار والعياذ بالله، وإن سلم هذا الشخص من الكبر وغيره من هذه المشاعر السلبية الناتجة من إحساسه بالتميز؛ لحصوله على مصروف زائد جداً عن حاجته، وإن سلم من الإسراف، فلن يسلم من أصدقاء السوء الذين سيجدون طريقهم إلى الطفل سهلاً؛ لإيجاد الطريق لإنفاق ما معه من مال، فيتعلم الطفل ومن سن مبكرة

التدخين – خصوصًا إذا كان أبوه من المدخنين – فمصروفه سوف يساعده على ذلك، وأصدقاء السوء سوف يرشدونه لما هو أسوأ، ومع كبر سن الطفل وتعرفه على الحياة أكثر، سيعرف طريق الانحراف ويدخله من أوسع أبوابه؛ لأن ما معه من مال، سيساعده وييسر له أدواته.

ولقد وجد أن أكثر المدخنين تعرفوا على التدخين في سن مبكرة، وأن مدمني المخدرات من الشباب كانت السمة المميزة لهم أنهم كانوا يحصلون على مصروف زائد عن حاجتهم بالمقارنة بمن هم في مثل سنهم من الطلاب.

الرضوخ لضغط الطفل :

يشتكي كثير من الآباء من عدم احترام الطفل لحاجات الآخرين، والاعتداء على ملكياتهم لبعض الأشياء، مع العلم أن هذا الأمر يختلف حسب سن الطفل، وحسب مرحلته العمرية، فمثلاً قد يقبل من طفل الثانية أو الثالثة تشبثه ببعض الأشياء غير الخاصة به، ومحاولته السيطرة على حاجات إخوته، وادعاؤه ملكيته لها، لكن هذا لا يعني بحال من الأحوال أن يستجيب الوالدان لهذه الرغبة مطلقًا، لكن لابد من أن نخبر الطفل، وبأسلوب مبسط أن هذه اللعبة مثلاً ملكٌ لأخيه، وتلك اللعبة ملكٌ له، ولا مانع من أن يلعب بلعبة أخيه إن كان يريد ذلك الآن، وعليه أن يعطيها له بعد الانتهاء من اللعب بها، مع العلم بأن الطفل سيحاول وباستخدام وسائل مختلفة أن يجعلنا نرضخ لمتطلباته، والتي قد لا تكون مقبولة في بعض الأحيان.

وحتى لا يتعود الطفل الضغط علينا بأسلوب معين ينتهجه، ينبغي علينا أن لا نرضخ لمتطلباته غير المقبولة، والتي يُدرك هو بنفسه أنها ليست حقًا له، وهذا سيساهم كثيرًا في طريقة تنشئة الطفل وتربيته.

هذا ما يؤكده د/ رياض عسكر حيث يقول :

« ... وبتقدم الطفل في النمو يتعود الاستجابة بأسلوب معين من الانفعالات

لكل مشكلاته المختلفة التي تصادفه في حياته، فإذا أراد شيئًا معينًا، أو أخذ منه شيء معين يلعب به، فد يصرخ، وقد يجيب بالاحتجاج الهادئ، أو النداء اللطيف، أو بالرجاء، ويتوقف اختياره لأحد هذه الأساليب حسب ما تعوده؛ ولذا يجب أن لا نستجيب كثيراً لصراخ الطفل، والأفضل إهمال طلبه الذي يأتي عن طريق الصراخ، ولو أننا نعترف أن الوصول إلى ذلك ليس من الأمور الهينة، ويحتاج إلى صبر ومران طويل من جهة، وإلى تعاون من جميع من يُحيطون بالطفل من جهة أخرى؛ إذ من العبث أن يلجأ الوالد وحده إلى إهمال طلبات الطفل وصراخه في حين تستجيب لها الأم، فلا يفهم الطفل القصد من إهمال صراخه، ولا تتكون العادة لديه، ويظل يصرخ حتى ترهق أعصابه، إذا تمادى الوالد في الإغضاء والامتناع، هذا فضلاً عن الكراهية التي قد تنشأ في نفس الطفل نحو الوالد.

أما إذا كانت سياسة الأسرة العامة واحدة، تكونت العادة سريعًا وبسهولة، وأمكن تفادي المشكلات الانفعالية المذكورة، ويجب أن تكون مواقف الأسرة لا سيما الأب والأم نحو انفعالات الطفل خالية من الحقد أو الكراهية أو الانتقام؛ فالأم التي تعاقب الطفل بالضرب أو الأذى لأنه يصرخ، أو لا يطيعها، قد أدخلت نفسها كخصم في المسألة، مع أن الطفل لا يقصد أن يكون خصمًا، كما أنه لا يقصد إيذاء من يطلب شيئًا ويلح في، لكنه خاضع لنداء طبيعته، ولا يعلم أن طلبه يؤذي أحداً، والواجب أن يكون تصرف الأم أو غيرها نحو الطفل قائمًا على الحكمة، والاتزان وعدم التطرف، وعلى الفهم لدوافع الطفل، فإن أردنا أن نمنع شيئًا عنه، وجب أن نعطف عليه..»[١].

إن عاطفة الأم الزائدة، وحبها الشديد للطفل، قد يكون سببًا في إفساده، وانحراف سلوكياته في المستقبل؛ فالأم التي تستجيب لرغبات الطفل كلما ضغط عليها بالبكاء أو الصراخ، سيتعود أن تلبي طلباته بهذا الأسلوب حتَّى

---

(١) «تربية الطفل ونفسيته» د/ رياض محمد عسكر مطابع رمسيس – اسكندرية.

بعدما يكبر، ولن يتعلم أن هناك أمورًا لا يمكن تلبيتها له، وأنه ليس كل ما يطلبه قد يكون متاحًا، كما سيتعلم الاعتداء على حاجات الآخرين، فكل شيء أمامه مباح.

ويكون كذلك حب الأم الشديد لطفلها سببًا في فساده وانحرافه، حين يدفعها هذا الحب للدفاع عن الطفل مطلقًا، وتبرير أخطائه، وحمايته من نيل العقاب المستحق عليه لارتكابه بعض الأخطاء، مما يدفع الطفل لارتكاب الخطأ وتكراره، مستهينًا بالعواقب، ويتعود الطفل على هذا؛ فيندفع في طريق الانحراف مع تقدمه في السن، وهو غير مقدر للعواقب الوخيمة التي تنتظره.

إن الطفل يتعلم ومنذ الصغر مبادئ الأخلاق، والأسس التي يجب أن يتعامل بها مع الناس، ونحن الذين نعلمه هذا الأمر، ونعوده عليه، وحين يكون لدى الوالدين فكرة واضحة عن تنشئة الطفل، ويكون لديهما اتفاق على طريقة تربيته، وكيفية معاملته؛ سينشأ الطفل بطريقة سوية، ويعرف الميزان الصحيح للصواب والخطأ، أما إذا كان كل من الأب والأم يهيم في واد مختلف عن الآخر، وكل منهما يحمل قيمًا مختلفة عن حقائق الحياة، ومعايير مختلفة عن الصواب والخطأ وعن الحلال والحرام، فسينشأ الطفل في صراع نفسي بين قيم الأب وقيم الأم، وقد يؤدي به الأمر إلى رفض كلا الطرفين، وعدم الثقة في أي منهما.

والحقيقة أن هذا الأمر لا يقتصر فقط على الأب والأم، بل ينبغي أن يتعامل جميع المحيطين بالطفل معه بنفس المعايير ؛ فالمعلمة التي تشرف عليه في دور الحضانة لها تأثير كبير على شخصيته، وقد يقتنع بها أكثر من الأب والأم، ويعجب بها إعجابًا شديدًا، ونلحظ هذا دومًا في كلامه «تقول المعلمة...» .

إنه يهتم بها جداً ، ويأخذ عنها كل شيء، وإذا لم تكن المعلمة على درجة من الأخلاق والفضيلة، والفهم السليم لحقائق الدين؛ فإن مجهود الوالدين سوف يضيع هباءً، ويذهب سدى، وسوف يقع الطفل في صراع بين ما يقوله الوالدان،

وما تقوله المعلمة، ولن يجد الإجابة الشافية عمًّا يدور في ذهنه من أسئلة، هل يصدق كلام الوالدين أم يصدق كلام المعلمة؟

وهذه الازدواجية تُشتت الطفل، وتجعله غير مدرك لأمور كثيرة، وغير مقدر لقيم الصواب والخطأ، والحلال والحرام، وهذه المشكلة تجعله يستهين بالحدود، وبالمعاملات، وتدفعه في طريق غير واضحة المعالم.

عدم احترام الملكية الخاصة للطفل :

ومن المبادئ التي يسعى الوالدان – أو من المفترض أن يسعى إليها الوالدان – غرس احترام الملكية الخاصة بالغير في نفس الطفل، لكن يغفل الكثير من الآباء عن أمر مهم وضروري، ألا وهو احترام الملكية الخاصة للطفل نفسه؛ لأن عدم احترام ملكية الطفل الخاصة به، سيجعله بلا شك لا يحترم ملكية الغير، ولن يتولد عنده الشعور بهذا المعنى المقصود غرسه، وعلى سبيل المثال فإن لعب الطفل، والتي قام الوالد بشرائها له يجب أن يشعر الطفل أنه لديه حرية التصرف في هذه اللعب بما لا يضر بنفسه، ولا باللعبة نفسها – إن كان الطفل قد تعدَّى مرحلة التخريب، وهي غالبًا من الثانية حتَّى الخامسة من عمر الطفل – مع العلم أن تخريب أي لعبة أمر وارد بالنسبة للأطفال عمومًا، لكن ينبغي أن ننبه الطفل بأسلوب غير عنيف إلى خطأ إفساد اللعبة، مع العلم أن ذلك سيتكرر منه؛ لأن الطفل عمومًا له ميل نحو التخريب، وهو ميل ليس بهدف التخريب نفسه بقدر ما هو بهدف اكتشاف أمور يجهلها هو ويحب التعرف عليها.

وبعيداً عن قضية التخريب والتي لها مجال آخر، فإننا يجب علينا أن نسمح للطفل بأحقيته بلعبته، وبالتمتع بها كيفما يشاء، ونعلمه كيف يحافظ عليها، ويحفظها في مكان مخصص بعد فراغه من اللعب بها؛ لأن تخصيص مكان لحاجات الطفل، هذا الأمر يغرس فيه الملكية الخاصة، واحترامها، وهو ما يجب أن يتعلمه ومنذ الصغر في رحلة عمرية طويلة وشاقة، لكنها مهمة

ومفيدة وضرورية.

نقول هذا لأن الطفل الذي لم يتعود احترام حاجات الغير، وينشأ على الاعتداء عليها، ولا يجد توبيخًا من والديه لهذا السلوك، ولا استنكارًا له؛ عندما يكبر سيكون لديه ميل نحو السرقة، ولن يجد بأسًا في الحصول على ممتلكات الغير؛ إن ضَمِنَ عدم الوقوع تحت طائلة القانون، أو أَمِنَ العقاب.

وقد يكون الطفل فعلاً في سنواته المبكرة لا يفهم معنى الملكية بالمعنى الذي يفهمه الكبار، ولا يفهم معنى السرقة لكن هذا لا يعني مطلقًا أن نوافقه على اعتدائه على ملكية غيره، وإن كان هذا الغير هو الأب أو الأم أو أحد إخوته، وإذا حدث واعتدى الطفل على ملكية غيره يجب وعلى الفور أن نبيّن له خطأ ما فعل، ونرد الأمر إلى نصابه الحقيقي، ونرد الحق لصاحبه؛ خصوصًا إذا كان الطفل في سن الخامسة أو السادسة، أما قبل ذلك، فينبغي تنبيهه لخطأ ما فعل، مع عدم العقاب؛ لعدم فهمه للملكية الخاصة، ثم نحاول أن نشغله عن لعبة أخيه بأشياء أخرى؛ حتّى لا يتشبث بلعبة أخيه، مع العلم أن الطفل دون الخامسة – في الثالثة مثلاً أو الرابعة من عمره – يحب أن يأخذ أي لعبة، ويحوز كل شيء، ويستولي على لعب إخوته، وهذا شيء طبيعي غير شاذ، يجب مواجهته بأسلوب حكيم، فليفهم الطفل أن هذه لعبته، وتلك لعبة أخيه، ولا مانع من أن يشارك أخاه في لعبته، وبعد أن يشبع من اللعب بها ويعطيها له.

ويمكن حل النزاع الناشئ بين الأخوة الصغار حول هذا الأمر عن طريق صرف الأخ الأصغر الراغب في لعبة غيره إلى أي أمر آخر يشد انتباهه؛ لأن الطفل الصغير سريع التحول، سريع النسيان، متقلب المزاج.

إن حسن التربية على احترام ملكية الطفل الخاصة، واحترام الطفل لملكية إخوته الصغار، وملكية الوالدين الخاصة، وسوف يعود الطفل على عدم انتهاك ما للغير من أشياء، واحترامها، وتقديرها.

هل يعي الطفل معنى السرقة؟

الطفل فيما بعد سن الخامسة يدرك ما هو حق له، وما ليس له بحق، إنه لا يدرك معنى السرقة بالمعنى الواضح الذي نفهمه، لكن يعلم تمامًا أنه قد أخذ ما ليس بحقه؛ لذلك « ينبغي أن يواجه الآباء الموقف في جلاء وصراحة، وأن يدركوا أن الطفل إذا كان قد نما من الناحية العقلية والاجتماعية إلى الحد الذي يستطيع التفرقة بين أملاكه، وأملاك الغير؛ فإن اعتداءه على هذه الحقوق سوف يوصم بالسرقة من قبل الناس، مهما كان تسامح أهله بصدد ذلك الأمر؛ لهذا كان من اللازم لخير الطفل أن تُهيأ له الفرصة؛ كي يتعلم أن خلس ما يشتهي ذنب أشد من العصيان، وأن يعود عليه بجزاء أضنى وأشد صرامة . . » (١) .

عندئذ سيعلم الطفل أن اعتداءه على ما ليس له بحق أمر خطير، وبالتالي سيتعلم عدم الاعتداء على حقوق الآخرين، أما التهاون بخصوص هذا الشأن سيجعل الطفل لا يعبأ بأن يأخذ ما ليس له بحق، بل ويتعود ذلك، وقد لا ينفع معه الإصلاح فيما بعد إلاَّ بعد جهد جهيد، هذا وليس معنى أن يهتم الوالدان بعقاب الطفل عند اعتدائه على حاجات الغير، ليس معنى هذا العقاب أن نعنفه مثلاً بقولنا « يا حرامي »، فهذا ليس عقابًا سليمًا؛ إنه أمر غير صحيح، فهو فعلاً ليس سارقًا؛ لأنه وكما قلنا لا يعرف معنى السرقة بالمعنى الذي نفهمه، هذه واحدة .

أما الثانية فإننا بهذا القول نسبب له الإذلال والإحساس بالمهانة، وهذا خطر جدًا على الطفل، وليس من أهداف العقاب في شيء؛ إن العقاب بهذه الصورة وإذلال الطفل قد يأتي بنتائج عكسية، وليس هو من باب العقاب المطلوب.

إننا لا ندعو للتهاون في معاملة الطفل عند اعتدائه على ممتلكات غيره، وفي الوقت نفسه لا ندعو لإذلاله وإلحاق الخزي به والعار، كلا، إننا يجب أن نخبره أن هذا الفعل ينافي مكارم الأخلاق، ولا ينبغي أن يتصف به ذوي الأخلاق الكريمة،

(١) مشكلات الأطفال اليومية » د/ دجلاس توم .

والأطفال الطيبين.. وأن الذي يعتدي على ممتلكات غيره لا يناله إلاَّ العقاب في الدنيا وكذلك في الآخرة إن لم يتب عن هذا الفعل.

وإذا حدث مثلاً واعتدى الطفل على ممتلكات غيره من الناس؛ فينبغي أن يردها له الطفل مع الاعتذار المناسب، مهما كان الشيء الذي أخذه بسيطًا؛ فالعبرة في الفعل وليس في الشيء ذاته.

إن من أخطر الأساليب في مواجهة سلوك الأبناء أسلوب التستر على الخطأ والتهرب منه؛ فقد يلجأ البعض - خصوصًا أمام الغير - إلى التستر على أخطاء الولد؛ خوفًا من افتضاحه أمام غيره من الناس؛ فيفهم الطفل من هذا جواز التستر على الخطأ، كما يستهين به، ويجب أن يعلم الوالدان أنه ليس من باب الفضيحة أن يخطئ الطفل؛ فالطفل طبيعي أنه لا يقدر الأمور كما يقدرها الكبار، ولا يفهمها كما نفهمها.

وعدم التستر على فعله لا يعني بالضرورة عقوبته أمام غيره، أو إذلاله وإهانته، بل يمكننا استخدام أسلوب الإرشاد والتوضيح، ودعوة الطفل إلى إصلاح الخطأ الذي ارتكبه والاعتذار بأسلوب لطيف لمن أخطأ في حقه، هذا أفضل من التستر على الخطإ أو الهروب منه، أو التشاغل عنه، أو عقاب الطفل وإذلاله أمام الغير، نعم يجب عقابه، لكن كما ذكرنا هناك فرق بين العقاب والإهانة، وإشعاره بالخزي والعار، كما يفعل بعض الآباء.

وينبغي عدم معايرة الطفل بأي فعل يفعله مهما كان هذا الفعل، فليس معنى أن الطفل مثلاً اعتدى على بعض ممتلكات الغير أن الطفل أصبح سارقًا، ليس معنى أنه كذب متعمداً أنه أصبح كذابًا.. ، كلا، ولكن كل هذه الأمور في مهدها بسيطة ويمكن معالجتها والتغلب عليها بكل سهولة.

دور الصداقة والأصدقاء في سلوك الأبناء

الصداقة أمر ضروري بالنسبة للأبناء :

من الضروري أن يعرف الآباء أن الصداقة أمرمهم جداً وضروري بالنسبة للأبناء، بل إن الطفل الذي ليس لديه أصدقاء طفل غير طبيعي من الناحية الاجتماعية، ولابد أن يكون لديه مشكلة ما في عدم التكيف مع الغير؛ وذلك لأن الطفل الطبيعي ينجذب نحو أقرانه ويفرح لقدومهم، واللعب معهم.

وتزداد حاجة الطفل إلى الأصدقاء، وإلى تكوين علاقات مع أقرانه مع تقدمه في السن، وتحتل مرتبة الصداقة في حياة الطفل في مرحلة المراهقة مثلاً درجة كبيرة ، « فتزداد حاجة المراهق إلى تكوين علاقات وطيدة مع من هم في مثل سنه؛ وذلك لأنه يعتقد أن الكبار لا يمكن لهم أن يفهموه الفهم الكافي.

ومع ذلك فإن المراهق أو المراهقة الذي لا يكتسب الخصائص الشخصية التي تتيح له أن يكوّن أصدقاء، يجد نفسه في موقف يدعو للرثاء، ويتعرض للكثير من المصاعب ويصبح في موقف حرج؛ لأنه على الرغم من شعوره بحاجته إلى الأصدقاء فهو يعجز تماماً عن فهم الأسباب التي تؤدي به إلى الإخفاق في تكوين صداقات بينه وبين أنداده وأقرانه » [١].

بل إن تأثر المراهق بأقرانه لأمر كبير حقاً؛ فهو يتأثر بدرجة كبيرة بسلوكياتهم وأفعالهم وأقوالهم، ومع ذلك فإن « مصاحبته لهم هو في الواقع نوع مهم من النمو » [٢] .

---

(١) « توجيه المراهق » دجلاس توم، ترجمة / جابر عبد الحميد، ومحمد مصطفى الشعبي، وعزيز حنا داود ، مراجعة د/ عطية محمود مهنا، ط مكتبة النهضة المصرية(١٩٥٧م) .

(٢) « كيف نعيش مع الأطفال » اديث نيسر، ترجمة / سامي علي الجمال، إشراف د/ عبد العزيز القوصي، ط مكتبة النهضة المصرية(١٩٦٠م) .

لذلك فإن منع الطفل من تكوين صداقات مع غيره هو أمر خطر على صحته النفسية، وعلى سلوكياته الاجتماعية فيما بعد، نقول ذلك حتَّى لا يظن بعض الآباء أنه لحماية الطفل من التأثر بالسلوكيات الضارة ينبغي منعه مطلقًا من تكوين صداقات مع غيره؛ لأنه إن فعل ذلك فقد يحميه من مشكلة،لكنه في ذات الوقت يوقعه في مشكلات أخرى، وبدلاً من ذلك فإنه ينبغي عليه أن يشجعه على تكوين صداقات، ويراعي أن تكون هذه الصداقات من النوع الجيد الراقي، ويتم ذلك عن طريق التوجيه والإرشاد لا عن طريق الأمر والنهي اللَّذين يمثلان للطفل مشكلة ، وخصوصًا للمراهقين الذين يتميزون بالتمرد على الوالدين وعلى الكبار بصفة عامة.

والطفل يحتاج للأصدقاء؛ لأنه يشعر معهم بالأمان، ويلبون لديه حاجة مهمة، وهي حاجته إلى التقبل الاجتماعي، فهو في وسط أصدقائه يشعر بأنه مقبول من الجماعة، وهذا يدخل عليه السرور، كما أنه يشعر بأن أصدقاءه هم الأشخاص الذين يمثلونه، فهم في نفس عمره، ومشكلاتهم واحدة، وتطلعاتهم واحدة، وهم أقدر على فهم بعضهم البعض من غيرهم .

كما أن حاجة الطفل إلى اللعب – وكما هو معروف – حاجة طبيعية ومهمة بالنسبة له، وضرورية لنموه نموًا طبيعيًا من الناحية النفسية والسلوكية، وهذه الحاجة إلى اللعب لا يستطيع الطفل تلبيتها غالبًا إلاَّ مع أقرانه؛ لأن الطفل يتحول تدريجيًا من سلوك التمركز حول الذات، الذي تتسم به مرحلة الطفولة المبكرة، إلى سلوك اجتماعي أكثر رقيًا يسمح له بالتعامل مع الآخرين، وتقدير حاجاتهم، والأخذ والعطاء، بعدما كان يستأثر بكل شيء لنفسه، ومع تقدمه في السن تزداد حاجته للعب الجماعي، واللعب مع الآخرين ومشاركتهم، نعم قد يكون للطفل صديق معين يفضله عن غيره، لكن هذا لا يمنع استمتاعه باللعب مع بقية أقرانه .

كما أن كثيراً من الأطفال يستمتعون بالصداقة ؛ لأنهم يجدون عند أصدقائهم أحيانًا إجابات لأسئلة تدور في عقولهم لا يجدون لها جوابًا عند أهليهم، أو يستحون من سؤالهم عنها، وخصوصًا إذا كان الأهل ممن يهملون هذه الناحية عند أطفالهم، ولا يجلسون معهم للمناقشة والمحاورة، أو يسفهون آراء صغارهم، ولا يحترمونها، أو يواجهونهم بالتقريع والتوبيخ عندما يسألون بعض الأسئلة المحرجة، أو يتهربون منهم.

عندئذ يكون الأصدقاء هم الملجأ والمتنفس بالنسبة للصبي فيما يخص هذه الأمور، ومن هنا تزداد حاجة مثل هؤلاء الأطفال إلى الأصدقاء، والجلوس معهم فترات طويلة.

لماذا يتأثر الطفل بأصدقائه؟

لا شك وكما ذكرنا أن غالبية الأطفال يميلون لتكوين صداقات، وهذه الصداقات تكون بالنسبة لهم من الأهمية بمكان، ويتأثر الطفل كثيراً بصداقاته، وبسلوك أصدقائه، وكلام الوالدين بالنسبة له قد يصبح أقل تأثيراً من كلام أصدقائه، مثلاً لو نصحه الوالدان بأمر ما، وهذا الأمر يُخالف ما عليه جماعة رفاقه، فإنه سوف يتردد كثيراً في قبوله والاقتناع به؛ وذلك لأنه «يريد أن يكون مقبولاً من الجماعة، ومن ثم يشعر بأنه لابد أن يتوافق مع معاييرها وأن يتقبلها»[١].

أما لو جاءت النصيحة مثلاً للطفل وخاصة المراهق، لو جاءت له النصيحة في أمر ما من أصدقائه، فإنه لن يتردد لحظة في قبولها والعمل بها، سواء كانت هذه النصيحة قولاً أو عملاً ، فمثلاً «قد تقول الأم لابنتها بالله كفي عن سلوك الأطفال، وارتفعي إلى مستوى سنك، إذا أردت أن تنجحي فيجب أن تكفي عن

(١) «كيف نتفاهم مع الوالدين» بتصرف، د/ جلاديس جاردنر جنكز، وجوي نيومان، ترجمة عقيد/ سيد عبد الحميد مرسي، إشراف وتقديم د/ عبد العزيز القوصي، ط مكتبة النهضة المصرية (١٩٦٠م).

ظلم الناس، ماذا حدث عندما نسيت فلانة أن تناديك؟، لقد نسيت فقط، كم تنسين أنت؟! .

وبالطبع لن تقبل الإبنة هذا الكلام من والدتها، لكن ضغط زميلاتها في أن تسلك سلوكًا أعلى من سلوك الأطفال هو الذي يقنعها، وقد لا يكون إصرار الابنة على هذا السلوك إلاَّ في تلك المناسبة فقط » (١) .

ويُمكن للآباء أن يستفيدوا كثيرًا من الأصدقاء في تعديل سلوكيات الأبناء، وخصوصًا في مرحلة المراهقة؛ لأن المراهق عادةً تُصيبه الاضطرابات، ومرحلة المراهقة مرحلة خطرة، بل هي من أخطر مراحل حياة الإنسان، والأصدقاء ذوي الأخلاق الفاضلة والمستويات العلمية الرفيعة هم من يجب أن يبحث عنهم الآباء، ويحثون أبناءهم على مصادقتهم؛ ذلك لأنهم وبلا شك سوف يغيرونه، وسيصبح مثلهم في علمهم وخلقهم «فالمجموعة التي يمضي معها الطفل وقته، تُساعده كثيرًا في أن يحتفظ بمستوى معين من الأخلاق، وتمنعه من أن يحيد عن السلوك والآداب» (٢) .

وكما أن الأصدقاء الذين يتمتعون بالعلم والخلق يأخذون بيد صديقهم نحو عالم أفضل، فإنه على العكس من ذلك تمامًا، فإن الأصدقاء المنحرفين يجرون من يصادقهم لعالم الانحراف، أيًا كانت درجة هذا الانحراف، على سبيل المثال فإنه مهما حدَّث الأب ابنه عن أضرار التدخين الصحية وحرمته الشرعية، فإن ذلك لن يمثل للطفل أدنى رادع أو مانع؛ إذا كان أصدقاؤه يعتبرون من لا يدخن هو دون مرحلة الرجولة، وهو (عيل) في نظرهم؛ فالأصدقاء يمثلون القوة الجاذبة الكبرى للطفل، ومنهم يستقي مفاهيمه وأفكاره، ومن ثمَّ سلوكياته وأفعاله.

وقد يرجع هنا السلوك عند بعض الأطفال إلى فقدان الثقة في الكبار،

---

(١) «كيف نعيش مع الأطفال» بتصرف يسير .

(٢) المصدر السابق .

والاعتقاد بأن ما ينصحهم به الكبار هو ضد مصلحتهم، ولا نستغرب هذا الأمر، فمثلاً الأب الذي يكذب على ابنه في تفسير معين لأحد الظواهر العارضة، أو يكذب عليه بدون قصد نتيجة الجهل فيُخبره بما يظن أنه حقيقة، ثم يكتشف الطفل عن طريق المدرسة – مثلاً – أن ما أخبره به والده لم يكن هو الحقيقة، وأنه ظل لفترة يعتقد به وقد كان على ضلال بخصوص هذا الأمر، هذا الطفل الذي وقع فريسة كذب والده المتعمد، أو غير المقصود، نتيجة الجهل بأمر من الأمور؛ يفقد الثقة بوالده؛ لأن الطفل ليست لديه العقلية التي تفرق بين العمومية والنسبية، وأنه لا يعني أن والده كذب عليه مرة عامداً أو قاصداً، لا يعني هذا أنه يكذب عليه في كل مرة، وأنه غير جدير بثقته، الطفل ليس لديه هذه العقلية؛ فهو يفقد الثقة بسرعة فيمن حوله إن بدر منهم ولو أمر واحد يؤهلهم في نظره لفقدان الثقة فيهم.

كيف نحمي الابن من أصدقاء السوء ؟

مما سبق يتبين لنا مدى تأثر الطفل بأصدقائه، وهذا أمر قد دلَّنا عليه الشرع الحنيف؛ ففي الحديث الشريف : «**المرء على دين خليله؛ فلينظر أحدكم من يخالل**»

وفي تراثنا العربي الأصيل قول الشاعر :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فإن القرين بالمقارن يقتدي

ولكن كيف يتعامل الوالدان مع الطفل إذا تعرف على أصدقاء السوء؟ هل يواجهونه بعنف للتخلي عن أولئك الأصدقاء، والبعد عنهم واستبدالهم بغيرهم؟ أم يعملان على تقويم سلوكياته المعوجة مع عدم الإشارة إلى هؤلاء الأصدقاء بسوء؟، وكيف يعملان على تقويم سلوكياته وفي الجانب الآخر من يشده نحو السوء والانحراف شداً ويجذبه جذباً؟

يجب أن نقول للوالدين أنهما أخطئا في ترك ابنهما فريسة للتعرف على هؤلاء الأصدقاء، وبأنهما ومنذ البداية لم يعملا على تحصينه من هؤلاء الأصدقاء المنحرفين، والوقاية – كما هو معروف – خير من العلاج، لكن ماذا والوالدان الآن أمام أمر واقع لا مفر منه سوى الاعتراف به، ومواجهته ومحاولة إصلاحه؟

إنه ينبغي على الوالدين اللذين يواجهان من ابنهما سلوكًا غير سوي ويعلمان أن من وراء هذا السلوك أصدقاء السوء أن يسعيا لدفع ابنهما لتجنب هؤلاء الأصدقاء دفعًا غير مباشر، وذلك يتطلب منهما أن يعتمدا أسلوب التوجيه، وأن يتخليا عن أسلوب الأمر والنهي، فقد أصبح ابنهما كبيرًا، وهو في هذه المرحلة – مرحلة المراهقة – لا يقبل الأوامر، ويشعر بأنه قد أصبح رجلاً ولا يجوز لأحد أن يعامله باعتباره طفلاً أو صغيرًا .

فيجب أن يتفهم الوالدان هذا الأمر، ولا يقولا له مثلاً : أنت لازلت صغيرًا، وستظل صغيرًا، وستظل هكذا، ويجب أن تسمع توجيهاتنا وتُنفذها حرفيًا .

هذا الكلام بالطبع لا يجوز لمن هو في مثل هذه السن، كما أنه لن يقبل مطلقًا، لكن التوجيه يجب أن يكون في هذه المرحلة بأسلوب آخر ، بعيدًا عن توجيه الأمر المباشر، أو إشعار الإبن بالإلزام، وتبعًا لذلك يمكن للآباء توجيه الأبناء بمخاطبة جانب العقل فيهم، من منطلق المصلحة، واعتبار أنهم رجال وأنهم قادرون على الوقوف على الصواب والخطأ بمفردهم، فيقول الأب للإبن على سبيل المثال : يا بني إنني أُدرك أنك على قدر كبير من تحمل المسؤولية، وأنك رجل بمعنى الكلمة، ويمكنك تحديد النافع والضار، وأنك لن تجري وراء عواطفك، فتصاحب من في مصاحبته ضرر كبير لك ولمستقبلك، فأنا على يقين أنك ستترك مصاحبة فلان؛ لأنه ليس على هذا القدر من تحمل المسؤولية، كما أنه صاحب سمعة سيئة، ويمكنه أن يؤثر على سمعتك أنت أيضًا، وإنني أنتظر

اللحظة التي تنتصر فيها على الشيطان، وتستطيع بمفردك أن تتخلى عن أصدقاء السوء.

مع العلم أنه لابد من توفير البديل، واصطحاب الأبناء لتعريفهم بأصدقاء آخرين تتوفر فيهم الصفات الحسنة، وإتاحة الفرصة لهم للتعرف الجيد عليهم بطريقة تلقائية، والاستعانة في هذا بأصدقاء العائلة الكبار ممن يحترمهم ويقدرهم الأبناء.

[١] دور المعلم:

لاشك أن المعلم يمثل بالنسبة للتلميذ القدوة الأهم في حياته، وكلماته قد تكون أشد إقناعًا للطفل من والديه، بل هي كذلك في أغلب الأحيان، والمعلم الذي يقوم بأدواره المنوطة به خير قيام، ويعتبر أن من أدواره أنه مربي للشخصية، فإنه سيبدي بلا أدنى شك تعاونًا كبيرًا وتفاهمًا مع الوالدين تجاه ما يريدان من إصلاح ابنهما؛ فيمكن للوالدين – أحدهما أو كليهما – زيارة المعلم في المدرسة أو في المنزل – ويفضل عدم علم الطفل بهذه الزيارة – وشرح حالة الطفل لهذا المعلم، وهو يدري ما المطلوب منه .

وإذا كان معلم المدرسة – لظروف خاصة – لن يستطيع القيام بهذه المهمة، خصوصًا في المدارس المكدسة فصولها بالتلاميذ، فالمشرف الاجتماعي ، مع مراعاة أيضًا أن يتم توجيه المشرف الاجتماعي بطريق غير مباشر؛ حتَّى لا يزيد هذا الأمر تمسك التلميذ بأصدقاء السوء، ويظن أن هناك خطة من الوالدين لإبعاده عن أصدقائه.

والمشرف الاجتماعي يمكنه إقناع الطالب بالانتماء لإحدى الجماعات المدرسية، مثل جماعة الكشافة مثلاً، أو غيرها من الجماعات، هو ومن يريد من أصحابه، وفي هذه الجماعة الجديدة قد يتعرف على أصدقاء جدد، ويجد فيهم

الصفات الأحسن، والأخلاق الأفضل، وقد يعمل ذلك على تفتيت عصبة الرفاق السيئة حين يقتنع بعضهم بالانضمام لإحدى الجماعات، ولا يقتنع البعض الآخر، ويكون هذا سبب في إصلاح هؤلاء المنتمين لتلك النشاطات المدرسية، ومن ثم إصلاح الولد .

هذا فضلاً عما تقدِّم هذه الجماعات المدرسية من نشاطات تعمل على تنمية السلوك الإيجابي والبَنَّاء لدى التلاميذ، كما نعمل على استغراق نشاطاتهم واستيعاب طاقاتهم المهدرة في أشياء نافعة وبناءة، وتكون لدى الطالب اتجاهات إيجابية نحو نفسه ومجتمعه، مما يعزز لديه السلوك السوي، ويبعده بلا شك عن السلوك المنحرف، إن هذه الجماعات وإن كانت غير مفعلة في عدد من المدارس، ولا تقوم بأدوارها المبتغاة، إلاَّ أنها على الأقل سوف تمثل للتلميذ متنفسًا صحيًا وطيبًا، يستطيع من خلاله النمو بطريقة طبيعية سوية وسط أصحابه الذين يقومون جميعًا بعمل واحد يعزز لديهم السلوك الجماعي البناء، ويجعلهم أقدر من غيرهم على تحمل المسؤولية الملقاة على عاتق كل منهم .

وقد وُجد من الدراسات والأبحاث التربوية المختلفة أن التلاميذ الذين يشاركون في النشاطات المدرسية هم دائمًا التلاميذ المتفوقون في دراستهم، والمتميزون بمكارم الأخلاق .

إن التعاون بين البيت والمدرسة أمر مهم، وبدون هذا التعاون لن تستطيع المدرسة تأدية دورها بشكل كامل، وهناك بعض الآباء لا يعنيهم معرفة أحوال أبنائهم في المدرسة ومع مدرسيهم؛ حتَّى يفاجأوا بانحراف أبنائهم، ولو تعاون هؤلاء الآباء مع المدرسة وتابعوا أحوال أبنائهم لما حدث مثل هذا الأمر، وهناك مجالس الآباء والتي ينبغي تفعيلها في تنمية وتعميق العلاقة بين المدرسة والبيت، ولا تقتصر وظيفتها على جمع التبرعات أو مناقشة المشكلات الخاصة

بالأثاث المدرسي ونحوه، لكن يجب مناقشة المواضيع الخاصة بتربية الطلاب ومدى اقترابهم من غاية التربية المنشودة، وهي تكوين أو إنشاء المواطن الصالح، إننا أحيانًا كثيرة ننسى الغايات والأهداف، وننشغل عنها بمناقشة الجزئيات والفرعيات والإنشاءات ونحوها.

[٢] دور المؤسسة الدينية :

إن للدين دورًا في حياة الفرد والمجتمع لا يُستهان به، بل هو الدور الأعظم في التأثير في السلوكيات ودفعها نحو الأفضل والأحسن، وبغير هذا الدور تُصبح التربية بلا معنى، ولا تؤتي أكلها.

والمؤسسة الدينية – وهي المسجد في الإسلام – هذه المؤسسة لها دور عظيم في بناء الفرد والمجتمع؛ فالمسجد ليس مكانًا للعبادة أو للصلاة فحسب، بل هو جامعة في حد ذاته؛ لقد كان المسجد على عهد رسول الله ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم والتابعين وتابعيهم إلى عهد ليس ببعيد، كان المسجد على مدى هذه العصور بمثابة جامعة ومكان للتربية بأنواعها المختلفة، فلم يكن المسجد مكانًا للصلاة فحسب، ولكنه كان مكانًا لكافة أمور التربية، ففيه كانت حلقات تحفيظ القرآن الكريم، وتعليم الفقه وأمور الدين، وفيه كانت تعقد المناسبات المختلفة، وفي المسجد كانت تجهز الجيوش، وإليه تعود وبه تبدأ، وفي المسجد يجتمع المسلمون كل يوم جمعة في الخطبة ؛ ليستمعوا ولينصتوا؛ وليتعلموا من أمور الدين والدنيا، وأحوال المسلمين، وكانت تبحث أمور الدولة المهمة في المسجد، وتُؤخذ فيها المشورة من أهل الحل والعقد . . . إلخ.

هذا المسجد ظل ولعدة قرون منارة للعلم والإيمان، ومنه تخرجت أجيال مسلمة أنارت الدنيا طيلة قرون عدة بالعلم والإيمان، وكان العلم والإيمان طريقًا واحدًا وليس طريقين، حتَّى أضحى عدد كبير من العلماء يؤلف الكتب في الفقه

وفي علوم الطبيعة المختلفة على حد سواء، كابن سينا مثلاً، وابن رشد، والرازي، وغيرهم كثير .

وإن كان دور المسجد قد تضاءل اليوم، إلاَّ أنه لا يزال يمثل الحصن الأول لتربية الرجال؛ فالطفل الذي نشأ وتربى في المسجد لا شك أنه لن يعرف طريق الانحراف، ولا شك أن صحبته ستكون صحبة خير.

إن تعوَّد الطفل على الصلاة في المسجد جماعة، سوف يعمل على ربط هذا الطفل بالمسجد، فيصبح قلبه معلقًا بالمسجد، وأنى لمن كان قلبه معلقًا بالمسجد أن يعرف الشيطان إليه سبيلا؟!

ودعك ممن ينهون الأولاد عن ارتياد المساجد فهؤلاء لا فقه لهم، ولا يدركون أنهم بذلك يسهمون في إبعادهم عن الصلاة بصفة عامة؛ ذلك لأن الطفل إن لم يتعود الصلاة في الصغر فلن يتعودها في الكبر، وفي الحديث: «**مروا أولادكم بالصلاة لسبع سنين، واضربوهم عليها لعشر سنين...**»[(١)] .

وهؤلاء الذين يمنعون الأطفال من دخول المساجد لا يُدركون أن الأطفال على عهد رسول الله ﷺ كانوا يرتادون المساجد، وقد جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة، مثل حديث حمل النَّبي ﷺ أمامة بنت ابنته زينب رضي الله عنها في الصلاة وهو في المسجد، وهو حديث صحيح في البخاري ومسلم، وأحاديث دخول الحسن والحسين رضي الله عنهما وهما صغار إلى المسجد، وكلها أحاديث صحاح.

قال حجة الإسلام ابو حامد *الغزالي* : «ولا بأس بدخول الصبي المسجد إذا لَمْ يلعب ، ولا يحرم عليه اللعب في المسجد، ولا السكوت على لعبه، إلاَّ إذا اتخذه ملعبًا، وصار ذلك معتاداً فيجب المنع منه، فهذا مما يحل قليله دون كثيره، ودليل حل قليله ما رويَ في الصحيحين أن رسول الله ﷺ وقف لأجل عائشة رضي الله عنها حتَّى

---

(١) رواه أحمد والحاكم والترمذي وابن حبان بألفاظ متقاربة .

نظرت إلى الحبشة يزفون ويلعبون بالدرق والحراب يوم العيد في المسجد، ولا شك في أن الحبشة لو اتخذوا المسجد ملعبًا لُمنعوا منه، ولم ير ذلك على الندرة والقلة منكرًا؛ حتَّى نظر إليه، بل أمرهم به الرسول ﷺ؛ لتبصرهم عائشة تطييبًا لقلبها، إذ قال: «**دونكم يا بني أرفدة**» كما نقلناه في كتاب السماع» (١) .

والخلاصة:

أن دخول الصبيان المسجد لا بأس به، بل هو مطلوب؛ لتعويدهم الصلاة وارتياد المساجد، وإن كانوا صغاراً دون سن السابعة؛ فينبغي التنبيه عليهم بعدم اتخاذ المسجد ملعبًا، وتعليمهم آداب الجلوس في المسجد، هكذا يشب الفتى معتاداً على المسجد، وعلى صحبة الخير في المسجد، وعلى حضور دروس العلم، وعندئذ لن نجده أبداً مع المنحرفين أو المستهترين العابثين.

وفي الحديث الصحيح: «**سبعة يُظلهم الله في ظله يوم لا ظلَّ إلاَّ ظله، إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتّى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه**» (٢) .

والطفل حين ينشأ معتاداً على المسجد؛ فإنه بلا شك سوف يكون من هؤلاء السبعة المذكورين في الحديث الشريف بأكثر من صفة، إنَّ تعود الطفل على المسجد يجعله هادئ النفس، مرتاح البال، بعيداً عن أي انحراف نفسي أو سلوكي، ويحفظ نفسه من الاضطرابات التي تصيب عادة المراهقين، وتمر هذه الفترة عليه بسلام، وبدون مشكلات؛ فالعبادة تجعله قادراً على ضبط شهواته، واعتياده ارتياد المسجد يجعله يبتعد عن الصحبة السيئة، ويلتزم الصحبة الصالحة.

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/٤١٩) ط دار مصر للطباعة (١٩٩٨م)

(٢) الحديث متفق عليه، واللفظ هنا للبخاري.

[٣] دور الاقارب :

الوالد الذي يجد ابنه يسير في فلك أصدقاء السوء، ويريد منه أن يبتعد عنهم؛ خوفًا عليه من الانجراف في تيارات ضالة، أو منحرفة يمكنه أن يُنيب عنه أحد الأقارب الذين يثق فيهم الابن، مثل عمه أو خاله أو غيرهم، ممن يثق الابن فيهم ويحترمهم ويقدرهم، وهؤلاء قد يكون لكلامهم نوع من التأثير أكثر من الأب؛ ذلك لأن الابن خصوصًا في مرحلة المراهقة قد لا يقبل بعض الأمور من الوالدين، أو قد يعتبرهم يمارسون عليه نوعًا من السلطة والقهر، وهو يريد أن يفعل كل ما يريد عن طريق الإقناع، يعني يفعل ما يريد بدون ضغط من الأبوين.

والأقارب باعتبارهم لا يمثلون سلطة مباشرة على الابن، وكلامهم يعني النصح والتوجيه والإرشاد أكثر مما يعني الأمر والنهي؛ فإنهم سيكونون أكثر إقناعا للولد من والديه في بعض الأحيان، وهذا يأخذنا للحديث عن صلة الأرحام؛ ذلك لأن الوالد إن لم تكن علاقته جيدة مع إخوته وأصهاره؛ فإنه لن يستطيع دعوة أحدهم للحديث مع ابنه حول ما يريد، وتوجيهه وإرشاده نحو الصواب، وحتى لو جاء أحدهم ليتحدث مع الابن بدون سابق علاقة جيدة ووطيدة مع الابن فلن يؤتي الكلام ثمرته.

هذا وإن العلاقات العائلية الحميمة سوف تساعد كثيرًا في صلاح الأبناء،؛ وذلك لاتساع دائرة معارف الأبناء، فهناك أبناء العم وأبناء الخال، وغيرهم ممن يمكن أن يكوّن الطفل معهم علاقات وطيدة، وهم بلا شك مأمونون أكثر من غيرهم.



إشكالية المساواة بين الجنسين
ودورها في انحراف الشباب

هل يمكن أن يتساوى الذكر والأنثى في كل شيء؟ وهل من الحكمة أن يتساويا وأن لا يكون بينهما اختلاف؟

إن دعوى المساواة بين الجنسين لم تنصف المرأة حين ادعت الإنصاف، وإنما خدعتها بزيف بريق المساواة، ومنحتها السراب حتَّى إذا جاءت إليه لم تجده شيئًا ووجدت الفرق واضحًا لحكمة أرادها الخالق عز وجل.

نعم لقد وقع ظلم على المرأة نتيجة الجهل بتعاليم الإسلام الحنيف، والجهل بمبادئه السامية، لكن الظلم الذي وقع عليها من دعوى المساواة أشد، والجرائم التي ارتُكبت بحق المرأة من جرَّاء المساواة المزعومة لا تخفى على ذي لب حصيف، لقد باتت المرأة كالسلعة المباعة، تُباع وتُشترى، وتُعرض في «الڤاترينات» كما تعرض البضائع، وتُستخدم في الإعلانات بأسوأ صور الابتذال والخلاعة لجذب جمهور المشترين، بغض النظر عن نوع السلعة المعلن عنها.

لقد استغل الرجل الغربي المرأةَ أسوأ استغلال، وقام حفنة من المنتفعين في بلادنا بأسوأ مما قام به الغرب من استغلال المرأة واستغلال جسدها ليربحوا من ورائه المال والضلال؛ فباعوا دينهم بعرض من الدنيا قليل، وباعت المرأة دينها بدنيا غيرها، وظنت أنها حين تخرج كاسية عارية، وتعمل بجانب الرجل مثلما يعمل سواء بسواء، وتقتحم ميادين العمل غير المنضبط بضابط الأخلاق الإسلامية الأصيلة، ظنَّت أنها بذلك ترضي غرورها، وأنها تتساوى بالرجل، ولم تدرِ أنها خُدعت، واستُغلت لتمتع غيرها وتخسر هي كل شيء، تخسر نفسها، وبيتها، وأولادها...

ونعود للمساواة فنقول : هل حقًا المرأة تساوي الرجل في كل شيء ؟ !

رأي الطب والأطباء :

الحقيقة التي يؤكدها الطب ومن خلال التشريح لجسم الإنسان أن هناك فروقًا واضحة بين الذكر والأنثى، ليس في الأعضاء التناسلية فحسب، لكن في تكوين الجسم بصفة عامة.

« فهذا علم الأحياء قد أثبتت بحوثه وتحقيقاته أن المرأة تختلف عن الرجل في كل شيء من الصورة والسمت والأعضاء الخارجية إلى ذرات الجسم والجواهر الهيوليلية (البروتينية) لخلاياه النسيجية (Protein Molecules of Tissuecel) فمن لدن حصول التكوين الجنسي (Serformation) في الجنين يرتقي التركيب الجسدي في الصنفين في صورة مختلفة، فهيكل المرأة ونظام جسمها يركب كله تركيبًا تستعد به لولادة الولد وتربيته، ومن التكوين البدائي في الرحم إلى سن البلوغ، ينمو جسم المرأة وينشأ؛ لتكميل ذلك الاستعداد فيها، وهذا هو الذي يُحدد طريقها في الأيام المستقبلة، ومع بلوغ سن الشباب يعروها المحيض، الذي تتأثر به أفعال كل أعضائها وجوارحها.

وتدل مشاهدات أساطين علمي الأحياء والتشريح على أن المرأة تطرأ عليها في مدة حيضها التغيرات الآتية :

[١] تقل في جسمها قوة إمساك الحرارة، فيزداد خروج الحرارة منه، وتنخفض درجتها فيه.

[٢] ويبطؤ النبض وينقص ضغط الدم، ويقل عدد خلاياه.

[٣] وتصاب الغدد الصماء (Endocriues) واللوزتان (Tensils) والغدد اللمفاوية (Lymhatsqkaub) أيضًا بالتغير.

[٤] وينقص الاستقلاب الهيوليني (Protein Metalolism)

[٥] ويقل إخراج أملاح الفوسفات والكلوريد من الجسم، وينحط الاستقلاب الغازي (Ca- ous Metabolism)

[٦] ويختل الهضم ، ويقل التحام الشحم والأجزاء الهيولينية في المأكولات مع أجزاء الجسم.

[٧] وتضعف قوة التنفس وتصاب آلات النطق بتغيرات خاصة.

[٨] ويبلد الحس وتتكاسل الأعضاء.

[٩] وتتخلف الفطنة والذكاء وقوة تركيز الأفكار.

وفي كل مئة من النساء الحوائض لا تحيض إلاَّ ثلاث وعشرون بلا وجع أو ألم، وبحث الباحثون ذات مرة في أحوال (١٠٣٠) امرأة عقب الانتخاب، فوجدوا أن (٧٤٪) منهن كنَّ يقاسين الوجع وغيره من صنوف الأذى أيام حيضهن..

ودلَّ الفحص الطبي الذي قام به الطبيب « كريجو » في عدد من النساء أن نصفهن يعللن بسوء الهضم أثناء الحيض، وبالإمساك في أواخرها.

ويقول الطبيب «جب هارد»: قل من لا تعتل بعلة في المحاض، ووجد أكثرهن يشتكين الصداع والنصب والوجع تحت السرة وقلة الشهوة للطعام، ويُصبحن شرسات الطباع مائلات للبكاء.

فنظرًا لهذه العوارض كلها يصح القول: أن المرأة في محاضها تكون في الحق مريضة وينتابها هذا المرض مرة في كل شهر، وهذه التغيرات في جسم المرأة تؤثر لا محالة في قواها الذهنية، وفي أفعال أعضائها...

واستخرج كذلك الأستاذ كوشي شكفسكي (Kvschi skvshy) من اختباراته النفسية أن المرأة يلتهب فيها المجموع العصبي في هذه الأيام، ويبلد الحس ويختل، ويضعف الاستعداد– وربما تعطل بالمرة – لقبول الانطباعات المرتبة، مما يجعلها تتخلج حتَّى في أعمالها التي قد اعتادتها في حياتها اليومية..

ويكتب الأستاذ لابنسكي (Lapinsky) **في كتابه «نشأة الشخصية في المرأة»** :

.. أن مدة الحيض تحرم المرأة حريتها العملية؛ فهي تكون في أثنائها تابعة لحركاتها الاضطرارية، وتنقصها جداً قوة استعمال إرادتها للإقدام على العمل أو تركه...

ويكتب الطبيب كرافت إيبنج (Krafft Ebing) : إننا في حياتنا اليومية نجد النساء اللاتي يكن لينات العريكة، دمثات الأخلاق، صنع الأيدي، تتغير طباعهن بغتة فور دخولهن أيام الحيض، وكأن هذه الأيام تمر بهن :مر العاصف يصبحن فيها متفجرات سليطات اللسان شديدات الخصام، يشكو سوء خلقهن كل من الخدم والأولاد والأزواج، حتّى الأجانب أيضًا لا يسلمون من سوء معاملتهن..

ويكتب الطبيب وينبرج (Weinberg) **مستندًا إلى مشاهداته** : إن الخمسين بالمئة من المنتحرات اللاتي بحثت أحوالهن،كنَّ قد ارتكبن الجريمة أيام الحيض»(١) .

كما لا يخفى على أحد أن المرأة زمن الحمل تكون كالمريضة سواء بسواء؛ فالأعراض التي تشكو منها الحامل خصوصًا في الشهور الأولى والأخيرة للحمل لا شك أن هذه الأعراض لو اشتكت بها امرأة غير حامل لحكم عليها بالمرض، وتناولت العلاج، وتلك الأعراض ليست صحية فحسب، بل ونفسية أيضًا، وكلنا يُدرك مدى تغير مزاج الحامل، وتغير نفسيتها، وما يصيبها من اختلال في المزاج واضطراب في الصحة النفسية والعقلية والبدنية..

كذلك المرضع تعاني من اختلال في الصحة العامة ويطلب منها حسن التغذية، كما أن رعاية الطفل حديث الولادة تحتاج من المرأة جهداً كبيرًا صحيًا ونفسيًا، وهي قد أعدت لذلك، ومنحها الله من الحب والحنان والعاطفة ما يجعلها تسهر لراحة طفلها الرضيع، وتحسن رعايته وتصبر على أذاه.

---

(١) نقلاً عن «الحجاب» للعلامة أبي الأعلى المودودي .

ألا يمثل ما سبق فروقًا جوهرية بين المرأة والرجل؟ هذه الفروق بلا شك تجعل من المساواة بينهما أمرًا مستحيلاً؛ فكل منهما قد خُلق لمهمة في الحياة تختلف عن مهمة الآخر؛ فالرجل قوي العضلات عظيم البنية كبير العظام، ثابت الجأش ذو عزيمة ورأي؛ وذلك لأن وظيفته الأساسية هي السعي في الحياة والكد والتعب، أما المرأة فهي ضعيفة الجسم، صغيرة البنية، عظيمة العاطفة، متقلبة المزاج، سهلة الإثارة، قليلة الصبر.. ؛ ذلك لأن وظيفتها الأساسية في الحياة رعاية الأسرة وتربية الأبناء، وإن كان هذا لا يعني عدم مشاركتها في الحياة الاجتماعية بصفة عامة، ولا يعني عدم مشاركتها في دفع مسيرة الحياة نحو التقدم سواء كان ذلك بجهدها البدني أو العقلي..

تلك الاختلافات لا تعني هذا ، لكن تعني شيئًا مهمًا جداً وهو أن المرأة والرجل في الأساس خُلق كل منهما لمهمة تختلف عن الآخر، وإن كان من الجائز أن يشتركا في بعض المهام، وإن تخلت المرأة عن مهمتها الأساسية لتُشارك الرجل مهمته لم تفلح المرأة في هذا ولا ذاك، ولأفسدت من حيث أرادت الإصلاح، والذين يدَّعون أن عدم مشاركة المرأة الرجل في كل المهام يعني إلغاء نصف طاقة المجتمع وإهدارها، لا يُدركون أن دور المرأة في الحياة لا يقل أهمية عن دور الرجل، بل ربما يزيد، فما رعاية البيت وتربية الأبناء بالأمر الهين ولا اليسير، وعندما انشغلت المرأة عن هذا الدور رأينا كيف انحرف الشباب والفتيات لعدم توفر الرعاية الكافية لهم، ولتخلي الأمهات عن تربيتهم وحسن رعايتهم.

إن الرجل والمرأة يختلفان حتَّى منذ نعومة أظفارهما؛ فالطفل الصغير الذكر يختلف عن أخته التي هي في نفس سنه، حتى في طريقة اللعب ونوعيتها؛ فإنك ترى الذكر يميل إلى ألعاب العنف، بعكس البنت والتي تفضل الألعاب الهادئة السهلة، وإذا قدمت (دمية) للولد وقدمت مثلها للبنت التي في نفس السن،

وجدت اختلافًا كبيرًا؛ فالولد لا يعيرها اهتمامًا، بينما تمسك البنت بالدمية، وتحتضنها وتُقبلها وتفرح بها فرحًا شديدًا.. ألا يدلك ذلك على شيء؟

يقول د/ بنجامين سبوك في كتابه «حديث إلى الأمهات»: « ... هناك أيضًا فروق تطفو على السطح منذ ساعة الميلاد، وبعد ذلك تنمو هذه الفروق وتصبح واضحة المعالم، ويصبح من السهل أن نميز بين الفتى والفتاة، طبعًا بدرجات متفاوتة تزيد أو تقل حسب أساليب التربية، ومن خلال ملاحظاتي كطبيب أطفال، أرى أن الذكور عادة يتميزون بالقلق والعناد والإصرار منذ الميلاد، وأن أكثر الإناث يستسلمون لتيار الحياة السهلة، حتَّى وهنَّ في عربة الأطفال الرضع، إن الذكر يُحارب حتَّى ولو مع نفسه، والفتاة تسترخي وتستمتع بدون حرب.

وهناك صعوبة دائمًا في تدريب الأطفال على التبول والتبرز، إنهم أكثر عنادًا من البنات في هذه المسألة، وعندما يكون عمر الطفل بين السنة والسنتين وعندما لا نفرق بين لعب الأولاد والبنات، فإننا نجد أيضًا بعض الفروق واضحة، عندما يزورني في عيادتي الطبية طفل للكشف عليه، فإنه يأخذ مني جهاز فحص الأذن؛ ليعبث به، وهو جهاز يعمل بالبطارية وبه عدسة توضح للطبيب حالة الأذن من الداخل، وعندما يقع هذا الجهاز في يد الطفل، فإنه يحاول أن يفك بعض أجزائه أو يحرك أي شيء فيه يمكن أن يتحرك، ويحاول أن يفصل المرآة العاكسة، ثم يحاول أن يدير هذا الجهاز، ويبكي كثيرًا عندما تنتهي الزيارة؛ لأنه يريد أن يأخذ هذا الجهاز معه إلى منزله.

وهذا مثال بسيط على حب الأجهزة الميكانيكية ومحاولة فكها وإعادة تركيبها، رغم عدم معرفته بفائدتها، وكثيرًا ما حاولت أن أُقدم جهاز فحص الأذن لطفلة في نفس العمر، لكن أي فتاة كانت تبتسم في سعادة كأنها تشكر لي ذلك، وتنظر إلى الضوء الصاعد من هذا الجهاز، وقد تلحس الضوء بطرف

لسانها، ثم تترك الجهاز بهدوء، ولا تُحاول أن تفك أي شيء كما يحاول أي ولد » [١] .

هذا من حيث الميول والرغبات والاهتمامات مما يؤكد الفروق في الغايات والأهداف الموكلة لكل من الجنسين « وقد أجرى باحثان بريطانيان دراسة على الأطفال تبين منها أن البنات في مرحلة ما قبل الدراسة يقضون ما معدله (٩٢,٥) ثانية في وداع أمهاتهم على باب المدرسة، أما الأولاد فحوالي (٣٢) ثانية، وأن القادم الجديد إلى المدرسة – من الجنسين – يحظى بقبول وصداقة البنات ولا مبالاة الأولاد » [٢] .

وهذا يدل على أن هناك فروقًا نفسية واضحة بين البنات والأولاد منذ الصغر؛ فالمرأة بطبيعتها عاطفية، وتُحب الغير وترى نفسها من خلال غيرها، وهذا ما يجعلها عرضة للخداع من قبل المخادعين حين تنفلت في غمار الحياة والعمل الذي لا يصلح إلاَّ للرجال.

كذلك فإن عقل المرأة وطريقة تفكيرها تختلف عن الرجل، وقد أجرى علماء النفس والباحثون الاختبارات لمعرفة الفروق في الذكاء والقدرات العقلية بين الجنسين، فوجدوا اختلافًا كبيرًا، وجدوا أن الذكاء عند المرأة يختلف عنه عند الرجل وأنه قد وضع بطريقة وبتركيبة معينة تختلف عن الرجل تمامًا، وهذا لا يعني أن المرأة أقل ذكاءً من الرجل، كلا؛ فالذكاء العام عند الجنسين لا توجد فيه فروق واضحة، لكن هناك اختلاف في تركيبة عناصر الذكاء، ولا ينقص المرأة من عناصر الذكاء إلاَّ الانتباه لما يهم الرجال؛ فحياة النساء تدور مع العاطفة، وهذا لا يعني أن العبقرية خاصة بالرجال فقط، لكن عناصر الذكاء عند المرأة مُزجت بحيث أخرجت طرازًا مختلفًا » [٣] .

---

(١) « حديث إلى الأمهات » د/ بنجامين سبوك، ترجمة منير عامر.

(٢) « كيف تفهم الجنس الآخر » إيفات كريستان، ترجمة / محمد خالد .

(٣) « كيف تفهم الجنس الآخر » د/ إبراهيم ناجي .

ومن المعروف أن الإسلام جعل شهادة المرأة نصف شهادة الرجل لهذا السبب، وهو قلّة الانتباه بدرجة أقل من الرجل؛ خصوصًا لما يهم الرجال في الحياة العامة، وبصفة خاصة في الأمور الجنائية، مثل حوادث الاعتداء أو القتل وغيرها؛ فالمرأة عادة ما تبتعد عن تلك الأمور.

وهذا ما فسَّره رسول الله ﷺ للنساء حين سألنه : «وما نقصان عقلنا وديننا يا رسول الله؟» قال: «**أليست شهادة المرأة نصف شهادة الرجل؟**» ، قلن: بلى، قال: «**فذلك من نقصان عقلها**» ثم قال: «**أليس إذا حاضت لم تُصلِّ ولم تصم؟**» قلن: بلى، يا رسول الله . قال: «**فذلك من نقصان دينها**» (١) .

فالإسلام لا يعتبر نقصان عقل المرأة في قلة ذكائها، كلا ، ولكن في قلة انتباهها، وقلة تثبتها من الأمور، وأنه يعتريها بعض الظروف تتسبب في نسيانها كثيرًا، مثل الحيض والحمل وغيرها.. وهكذا أثبتت الأبحاث الحديثة.

كما أن نقصان دينها الوارد في الحديث لا يعني نقصان في حقيقة الدين، ولا يعني أن النساء أقل إيمانًا، ولكن أن المرأة يعتريها بعض الظروف بصفة دائمة مما يجعلها أقل عبادة من الرجل، لكن لا تُحاسب على ترك الصلاة أيام الحيض وهي غير مطالبة بقضائها، بل واجب عليها ترك الصلاة والصوم أثناء الحيض ولا يطلب منها قضاء الصلاة، وإنما تقضي الصوم فقط.

أما من ناحية قبول العمل والإيمان؛ فالإسلام لا يفرق مطلقًا بين الذكر والأنثى ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل: ٩٧].

كذلك فإن الإسلام لا يفرق مطلقًا بين الذكر والأنثى من حيث الإنسانية واحترام الحقوق والواجبات؛ فالمرأة في الإسلام كائن محترم كالرجل سواء بسواء، ولا يجوز امتهانها، ولا الغضب لمن رزقه الله بأنثى، ولا يجوز إساءة

(١) رواه البخاري .

معاملتها ولا ظلمها . .

لقد جعل الله تعالى المرأة من الرجل فقال : ﴿ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ﴾ [آل عمران : ١٩٥]، وقال : ﴿ الَّذي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [النساء : ١]، وفي الحديث الشريف : «**النساء شقائق الرجال**» [١] .

ولا يتسع المقام لذكر تكريم الإسلام للمرأة التي امتهنها الشرق والغرب قبل مجيء الإسلام وبعده، والتي كانت مضطهدة في كل الشرائع الأرضية السابقة، والتي ظُلمت حتَّى من قبل أصحاب الديانات السابقة على الإسلام، والذين حرموها حقها في أن تعيش حياة إنسانية كريمة .

أما الغرب الذي كان إلى عهد قريب يمتهن المرأة وينتقص حقوقها [٢] فهو الذي ابتدع بدعة المساواة بين الرجل والمرأة، وليت ذلك من أجل إنصاف المرأة، فما أنصفت الحضارة الغربية المرأة حين جعلتها تعمل مثلما يعمل الرجل تمامًا وأشركتها معه في جميع المجالات، نعم ما أنصفتها، وإنما ظلمتها أشد الظلم؛ لأنها كلفتها ما لا طاقة لها به، ومنعتها من حق الرعاية والكفالة؛ فالفتاة في الغرب إذا بلغت سن الثامنة عشرة لا ينفق عليها عائلها، ولا يُكلف بالإنفاق عليها أحد، فهي مضطرة للخروج للعمل؛ حتَّى تعيش، أما الإسلام فلم يكلف المرأة بالإنفاق على نفسها، فهي في كنف أبيها أو زوجها أو أخيها . . ولا تكلف بالإنفاق على نفسها، وإن كان الإسلام لم يمنع المرأة من ممارسة أي عمل حلال لا يخل بوظيفتها كامرأة، ولا يؤثر على حياتها الزوجية ورعاية أولادها .

لكن لم يكلفها الإنفاق على نفسها؛ حتَّى لا يتخلى عنها المجتمع فتضيع في خضم أمواج الحياة الهادرة، وقد تتجه للبغاء كما يحدث في الغرب .

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» .

(٢) كان القانون الإنجليزي حتَّى عام(١٨٠٥م) يُبيح للرجل أن يبيع زوجته، وحتَّى عام(١٩٣٨م) ، وكان القانون الفرنسي ينص على أن القاصرين هم : الصبي والمجنون والمرأة .

إن نظرة الحضارة الغربية للمرأة تقوم على استغلالها لخدمة الرجل بخداعها بأنها تأخذ حقها في مشاركته في الحياة، وفي إثبات ذاتها وقدراتها، بغض النظر عن الموازنة بين العمل والبيت، وتمنح المرأة الحرية المطلقة لتفعل ما تشاء ولا يحاكمها أحد ولا يسألها أحد، فتعربد وتتخذ الخلان والأصدقاء ، وتشرب الخمر، وتفعل ما يحلو لها بغير ضابط من خلق أو دين.

وهم يحدثون المرأة بأن الرجل ليس بأفضل منك، ويجب أن تشاركيه في جميع مجالات الحياة وتتحديه حتَّى تثبتي أنك جديرة بذلك.

والحقيقة التي يجب أن تعلمها كل امرأة أن العلاقة بينها وبين الرجل ليست تفاضل (من أفضل من من) وإنما علاقة تكامل؛ فالرجل يُكمل المرأة، والمرأة تكمل الرجل؛ فله وظيفة الكد والتعب في الحياة لتحصيل الرزق، وهي ترعى الأبناء، وتقوم على خدمتهم وتوفير الراحة لزوجها ورعايته، مع إمكانية أن تساهم معه في العمل إن كانت تستطيع ذلك، ولا يطغى ذلك على وظيفتها الأساسية المذكورة آنفًا؛ وذلك لأن « مصلحة المجتمع ليست في أن تدع المرأة رسالتها الأولى في البيت لتعمل مهندسة أو محامية أو نائبة أو قاضية أو عاملة في مصنع، بل مصلحته أن تعمل في مجال تخصصها الذي هيّأتها له الفطرة: مجال الزوجية والأمومة، وهو لا يقل خطرًا، بل يزيد خطرًا عن العمل في المتاجر والمعامل والمؤسسات، وقد قيل لنابليون: أي حصون فرنسا أمنع؟ فقال: الأمهات الصالحات.

والذين يزعمون أن المرأة في البيت عاطلة، يجهلون أو يتجاهلون ما تشكو منه فضليات النساء، من كثرة الأعمال والأعباء المنزلية، التي تستنفذ وقتها وجهدها كله، ولا يكاد يكفي.. » [1] .

قد تسمح الظروف لبعض النساء بالعمل، مثل المرأة العقيم التي لا تلد، وقد

---

(١) ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده؛ الدكتور / يوسف القرضاوي .

تصاب بالملل؛ فتحتاج للعمل مثلاً، أو المرأة التي لا يؤثر عملها على واجباتها كأم وزوجة كالتي تمتلك رأس مال، وهناك من يسير لها تجارتها، وغير ذلك من الأمور، بشرط أن يُراعى في العمل الضوابط الشرعية، وأنه لا يؤثر على وظيفتها الأساسية كما قلنا، فهذا لا بأس به ، وألاَّ يكون ذلك بدافع تقليد الرجل أو محاولة التشبه به؛ فتقحم المرأة نفسها في أعمال لا تصلح إلاَّ للرجال؛ فتفقد بذلك أنوثتها، وتفقد كذلك صحتها.

يقول دكتور (kline) **رئيس أطباء المستشفى الحكومي للنساء في ألمانيا في مدينة** (lundwik sbuven) **:** «إن نسبة وجع الرأس الدائم عند العاملات هو أكثر بسبع مرات من تلك اللاتي في البيت بدون عمل، وموت الجنين والولادة قبل الأوان ليس سببه كما يتخيل أنه الوقوف الدائم أو الجلوس المنحني أمام منضدة العمل أو الحمل الثقيل غير الاعتيادي فحسب، بل هناك العامل النفسي الذي هو الأساس...» [١] .

---

(١) عن «الحجاب» لأبي الأعلى المودودي .

عمل المرأة خارج البيت وانحراف الأبناء

إن الجهل بتعاليم الإسلام وبدور المرأة ومكانتها في التشريع الإسلامي، هذا الجهل لدى قطاع عريض من نساء اليوم دفع الكثيرات منهن للوقوع في شرك وخداع زيف الدعاوي المضللة عن المساواة بين الرجل والمرأة، وعمل المرأة مع الرجل ومشاركتها إياه في ميادين الحياة المختلفة، مما دفع الكثيرات منهن لتفضيل العمل على تربية الأبناء تربية صحيحة بعناية واهتمام وحسن رعاية، فاندفعت المرأة للعمل وتركت أبناءها الصغار فريسة الظروف والأحداث، لصدر آخر قد لا يكون حنونًا عليها، وإن كان فلن يكون مثل صدر الأم، وانشغلت عنهم بعملها الخارجي، حتَّى إذا عادت للمنزل بعد عناء العمل لم تكن في حالة نفسيةجيدة؛ حتَّى تلاعبهم أو تودهم وتُسري عنهم، بل ربما نالهم منها الصراخ والعويل في وجوههم من أجل أن يصمتوا ويكفوا عن الكلام.

هل يمكن أن تقوم المرأة بالثلاثية المستحيلة: العمل خارج البيت، خدمة الزوج وتدبير شؤونه، ورعاية الأبناء وحسن تربيتهم؟!، هل يمكن لامرأة أن تقوم بهذه الواجبات الثلاث كما ينبغي؟

لو أفلحت المرأة الغربية في ذلك لأفلحت المرأة الشرقية؛ لأن الغرب بدأ التجربة (تجربة عمل المرأة بجانب الرجل) منذ أكثر من مئة عام، فما نال من ورائها إلاَّ التفكك الأُسري وتشريد الأبناء، وانتشار الزنا والبغاء.

يقول د/ هانسي كيرخهوف: « ... إن الأصوات تتعالى يومًا بعد يوم شاكية من الأعباء الثلاثة التي تنوء بها المرأة، ما تزال في ازدياد، أعني: عبء المهنة، وتدبير المنزل، والعائلة، بحيث إن وضع المرأة هذا لم يعد يُطاق، فكما كان

(تشغيل الأطفال) قبل مئة عام لطخة عار في نظامنا الاجتماعي، كذلك يُعتبر اليوم (تشغيل الأمهات) ، وإنه لمن المؤلم جداً أن ندرج مسألة ترك المرأة للبيت في قضية المساواة » [١] .

نعم قد تربح المرأة من العمل خارج البيت القليل أو الكثير من المال، لكن هذا المال يذهب جزء منه على الزينة وأدوات التجميل ونحوها، وبافتراض أنها ربحت من عملها هذا كثيراً وخسرت أبناءها فما قيمة هذا المال ؟!

إن مسألة عمل المرأة أصبحت اليوم من أجل الحصول على الأشياء الترفيهية، واقتناء كل جديد، وليس من أجل الحصول على الضرورات؛ فكثير من النساء اليوم لا يحتجن للعمل، ومع ذلك يخرجن للعمل خارج المنزل تاركات أولادهن ومهملات واجباتهن المنزلية، تحت دعوى تحقيق الذات!! فأي تحقيق ذات هذا الذي تبحث عنه المرأة، وهي لم تقم بواجباتها الأصلية داخل المنزل؟! .

إن عدداً من الزيجات قد باءت بالفشل بسبب واحد فقط هو عمل الزوجة خارج البيت، برغم عدم حاجتها للعمل مما يترتب عليه إهمال رعاية الأبناء، فتنشأ الخلافات الأسرية والمشاكل الزوجية تبعًا لذلك، ويطلب الزوج من زوجته المكوث في المنزل وتصمم هي على العمل، فتنفصم عرى الحياة الزوجية وتتفكك الأسرة، ويضيع الأولاد . .

وقد تقول المرأة : إنني لم أتعلم لأمكث في البيت، إنني تعلمت لأعمل مثل الرجل سواء بسواء! .

نقول لهذه المرأة : إنك تعلمت من أجل أن تكوني على وعي وفهم بأمور الحياة المختلفة، وحتَّى تستطيعي تربية أبنائك تربية على أسس قويمة، وتفهمي نفسية أطفالك، وتُحسني رعايتهم، ثم بعد ذلك تخدمي مجتمعك بما لا يؤثر

---

(١) عن كتاب « المرأة بين الفقه والقانون »

على بيتك وأبنائك، وإن العمل الذي يأتي على حساب البيت والأولاد عمل لا قيمة له، ولا فائدة من ورائه للمجتمع؛ لأن مفاسده أكثر من منافعه؛ فالعنصر البشري هو القيمة ، فإذا كان ضياعه ثمنًا للعمل، فبئس العمل هذا.

إن أغلب النساء العاملات يستخدمن لأبنائهن خادمات يرعينهم ويقمن بتربيتهم، فهي الأم البديلة حتَّى تعود الأم الأصلية من عملها، فهل يا ترى تقوم الأم البديلة بنفس دور الأم الأصلية؟! هل يستمد الطفل الحنان والرعاية اللازمين من الأم البديلة؟!.

إن وجود الأم مع الطفل في سنواته الأولى مهم جداً لنموه عاطفيًا ونفسيًا؛ فالطفل الذي يربى بعيداً عن أمه، أو لا تراه أمه معظم الوقت، وتقوم بتربيته أم بديلة، هذا الطفل لا شك لن يخرج طفلاً سويًا في المجتمع، بل سيخرج طفلاً عدوانيًا إن لم يخرج منحرفًا.

«لقد أظهرت دراسة للأطفال الذين أمضوا حياتهم الأولى في المستشفيات أو المؤسسات الأخرى أن الطفل يحتاج إلى أشياء أخرى أكثر إرضاءً من حاجاته الجسمية، لقد كان هؤلاء الأطفال يطعمون ويستحمون، ويعنى بهم بأحسن طريقة علمية سليمة، ولكن كان ينقصهم الرعاية الشخصية الدفيئة التي تقدمها الأم عادة لطفلها.

كان ينقصهم الشعور بالمساعدة والتشجيع، كان ينقصهم الشعور بأن هناك من يحتاج إليهم، وباختصار كان ينقصهم الحب الحقيقي، هؤلاء الأطفال كانوا كلما كبروا صاروا غير اجتماعيين يُضمرون العداء للمجتمع، وكانوا غير مطمئنين يملؤهم الخوف والقلق، وكانوا في معظم الحالات لا يستطيعون منح الحب لغيرهم» (١) .

---

(١) «كيف نساعد الأطفال في تنمية قيمهم الخلقية» أ. د أشلي مونتاجيو .

هذه إحدى المشكلات التي تنشأ من إهمال رعاية الطفل من قبل الأم وعدم حصوله على الحب والحنان الكافيين ، وهناك نقطة أخرى لا تقل أهمية، بل تزيد عن هذه النقطة، وهي أن الأم البديلة فضلاً عن قصورها الشديد في لعب دور الأم الأصلية؛ فإنها لن تستطيع في غالب الأحيان منح الطفل التربية اللازمة والتي يريدها الأبوان؛ فأغلب الخادمات غير مؤهلات علميًا ولا أخلاقيًا ولا تربويًا للقيام بمهمة تربية الأبناء، وهذا ينذر بخطر شديد على الصغار، خصوصًا إذا كانت الخادمة غير مسلمة أصلاً.

«وقد دلت دراسات عديدة أُجريت في المجتمع الخليجي على تزايد أعداد الخادمات، وأن من صفاتهن اختلاف الديانة (نصارى، بوذيون، هندوس) وفي المرتبة الرابعة جاءت الديانة الإسلامية، وكذلك انخفاض مستوى التعليم، بل وكثير منهن أميات ولا يتحدَّثن العربية، وأخيراً معظم الخادمات صغيرات السن (في العشرينيات) . . » [١] .

وماذا نريد من أطفال يتلقون التربية والعناية في سنواتهم الأولى على أيدي مربيات غير مسلمات وجاهلات؟!، نحن بقصورنا الشديد في رعاية أبنائنا ندفع بهم في طريق الانحراف من حيث نشعر أو لا نشعر، ونستهين بهذه الأمور ﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [النور: ١٥] .

وهناك بعض الأسر التي تحتاج فيها الزوجة للعمل خارج البيت أو تضطر للعمل خارج البيت للظروف المادية القاسية، فكيف يمكن للزوجة في مثل هذه الظروف أن توازن بين العمل خارج البيت وواجباتها كزوجة وأم؟!.

إننا الآن أمام أمر واقع لا خيار فيه للزوجة بين القعود والعمل، بل هي مضطرة للعمل وتتمنى القعود، هذه الزوجة لابد لها من مكان ستودع فيه أولادها فترة

---

(١) «التفكك الأسري، الأسباب والحلول المقترحة» كتاب الأمة ، العدد (٨٣) د/ أمينة الجابر، د/ صالح إبراهيم الصنيع، الشيخة العنود بنت ثامر آل ثاني .

غيابها عن المنزل، هذا المكان ربما يكون دار حضانة أو عند الأهل أو عند أحد الأقارب، ولدور الحضانة سلبيات وإيجابيات، ولقد اختلف التربويون حولها؛ فمنهم من فضلها في سن مبكرة للطفل ومنهم من رفض ذلك.

وأيًا كان الأمر فإن الأم المضطرة للعمل لابد أن تختار دار حضانة جيدة لأبنائها، ليس من ناحية النظافة والنظام والأمن فحسب، ولكن من الناحية التربوية والأخلاقية؛ فلابد من أن تتأكد من أخلاق من يشرف على أبنائها في هذه الدار، ومن أمانتهم والتزامهم بالإسلام وبالضوابط الشرعية؛ حتَّى يتشرب الأولاد هذه التعاليم السامية.

ولتعلم الأم أن الطفل يحب معلمته في دار الحضانة حبًا كبيرًا ويعتبرها مثله الأعلى مثل الأم تمامًا، بل أحيانًا يطيع معلمته في دار الحضانة ويقتنع بها أكثر من أمه، ومن هنا يظهر الدور الخطير الذي تلعبه دور الحضانة والمعلمات في التأثير على الأبناء منذ نعومة أظفارهم.

وإذا كان الأهل لا يتأففون من إيداع الطفل لديهم فترة عمل الأم؛ فإن وجود الطفل مع جده وجدته وأخواله أو أعمامه ربما يكون أفضل بكثير من إيداعه إحدى دور الحضانة والتي قد لا يؤمن على الطفل فيها، أما ترك الطفل عند الجيران أو الأقارب؛ فهذا قد يكون أخطر من تركه في دار الحضانة؛ لأن الجيران لن يولونه الرعاية الكافية، وقد يُصاب الطفل بمكروه لديهم بسبب الإهمال أو لأي سبب آخر، إلاَّ أن يكون هؤلاء الجيران أو الأقارب مأمونين بدرجة كبيرة، وهذا لا يتوفر في هذا الزمان إلاَّ في القليل النادر .

وقد يكون من الأفضل أن تأخذ الأم إجازة من العمل، وإن جاء ذلك على حساب ضيق المعيشة قليلاً، أو الاستغناء عن بعض الأشياء، والتي قد لا تُعتبر ضرورية عند الكثيرين؛ فإن ذلك أولى من ترك الأولاد فترة طويلة بدون رعاية

شخصية من قبل الأم، خصوصاً في السنوات الخمس الأولى بالنسبة للطفل.

وقد تستطيع بعض الأمهات أن تعمل عملاً بديلاً يُدر عليها ربحًا بدون أن تبتعد عن أبنائها أو تترك بيتها وقتًا طويلاً، كأن تعمل في حياكة الملابس مثلاً، أو التطريز، أو غير ذلك من المهن التي لا تحتاج من المرأة إلى الخروج من بيتها لفترات طويلة، وترك الأولاد أو إهمالهم، كما تستطيع توفير بعض المواد الغذائية التي تشتريها من الخارج بثمن عال عن طريق تصنيعها في المنزل، وكثير من النساء يقمن بهذا العمل، و هو عمل ناجح جداً، ويوفر الكثير من المال، مثل صنع الزبادي، والمربات والمخللات وغيرها في المنزل.. وتخزين بعض المواد الغذائية التي قد يرتفع ثمنها في بعض شهور السنة حتَّى لا تضطر لشرائها في تلك الأثناء مما يُرهق ميزانية الأسرة.

لماذا يكره بعض الأبناء الدراسة؟

من المشكلات التي تواجه الأبناء والآباء على حد سواء مشكلة عدم توافق هؤلاء الأبناء مع المدرسة، بل وكره بعضهم الدراسة ويصل الأمر ببعض الطلاب إلى الهرب من المدرسة، وهذه المشكلة إن لم يتم بحثها بطريقة صحيحة وهادئة، ويتم معالجتها بسرعة؛ فإنها تتفاقم بسرعة، وتتطور، فيصبح من الصعب بعد ذلك علاجها.

والطالب قد يكره الدراسة لعدة أسباب منها ما هو متعلق بالدراسة نفسها، ومنها ما هو متعلق بالبيئة والوسط المحيط بالطالب.

ويمكن أن تكون هذه الأسباب كالتالي :

[١] يتغيب من المدرسة أو يهرب منها؛ لأنه يخاف من شيء ما داخل المدرسة:

فقد يفعل هذا الأمر لخوفه من مدرس معين يضربه لسبب أو لآخر؛ أو لأن هناك طالب آخر يعتدي عليه، ولا يستطيع هو الدفاع عن نفسه، ويخاف أن يشتكيه للإدرارة، أو قد يخاف الطالب من حضور (حصة) معينة لضعفه في مادتها، أو خوفه من مدرسها.

إن هناك العديد من الأسباب المشابهة لتلك التي ذكرناها، والتي تقع تحت هذا البند، ويجب عدم التَّسرع في الحكم على الطالب قبل دراسة مثل هذه الأمور، والاستفسار منه عن الأسباب الحقيقية وراء سلوكه غير المرغوب.

[٢] اجتذاب الأنظار إليه والاهتمام به :

فقد يقع هذا السلوك الغريب من الابن لحاجة نفسية يعاني منها في البيت

كالإهمال مثلاً، والشعور بعدم الاهتمام، أو التفرقة في المعاملة بينه وبين أخوته، أو نحو ذلك من الأمور التي قد تشعره بعدم الاهتمام، مما قد يدفعه لسلوك الهرب من المدرسة؛ بغية الإثارة، ووقوعه في بؤرة الاهتمام من قبل الوالدين أو من قبل المدرسين أو من قبل زملائه الطلاب؛ إذ أنه يشعر عندئذ بنوع من الفخر والزهو؛ لأن الجميع يتحدَّثون عنه.

وهو حينئذ لا يستطيع أن يُفرق بين أن يقع في بؤرة الاهتمام لنشاطه وتفوقه؛ أو لأنه متميز في مجال معين عن غيره، وبين أن يتمثل سلوكه غير المرغوب؛ فيقع في بؤرة الاهتمام من الباب الخلفي، كاللصوص والمجرمين، الذين يتحدث الناس عنهم بسخرية واشمئزاز.

نعم قد لا يستطيع المراهق بالذات أن يلحظ هذا الفارق الجوهري؛ إذْ أن المهم عنده أن يُشبع رغبته في الظهور، وإحساسه بالاهتمام، وجذب الأنظار إليه.

[٣] قسوة الوالدين علي الأبناء :

وقد يقع هذا السلوك من بعض الأبناء، كردٍّ فعل عكسي لما يمارسه بعض الآباء من سلطة قاسية وعنيفة على الأبناء في البيت، فيتصور الطالب في مثل هذه الحالة أنه يقوم بعقاب الوالدين، وأنه يفعل هذا الأمر كنوع من العناد، ونوع من رد الشرف، فهو يعرف جيداً أن بهذا السلوك يتسبب لأبويه بالحزن والألم؛ لأنه يعلم مدى حبهما له، وهو لا يدري أنه يعاقب نفسه قبل أن يعاقبهما، وأنهما وإن كانا قد أخطآ في تقويمه بالقسوة عليه، فهما لا يريدان له في النهاية إلاَّ الخير والفلاح، وهو إذ يفعل ما يفعله يقوم بعقاب نفسه مرتين.

لكنه وتحت تأثير العنف الذي يُمارس عليه من قبل الوالدين، وشعوره بالإهانة، وحبه للرد والانتقام، يلجأ لمثل هذا السلوك لتفريغ كل تلك الشحنات النفسية غير المحتملة، أو الشديدة التأثير .

[٤] أصدقاء السوء:

في كثير من المصائب التي تحدث للأبناء، يكون لأصدقاء السوء الأثر الأكبر، والعامل المهم في الحدوث، وفي هذا الموضوع بالذات، يكون لأصدقاء السوء تأثير بالغ الأهمية على الابن؛ فقد يُصاحب الابن مجموعة من الطلاب يعتبرون الهروب من المدرسة نوعًا من الرجولة والاستقلالية، ونوعًا من تحدي الكبار، والشعور بالحرية، فما أجمل – في أعين هؤلاء – أن يقضي الطالب ساعات الدراسة المملة في الحدائق متنزهًا في يوم مشمس جميل، يستمتع بنسيم الزهور، ويبتعد عن جو المدرسة المشحون.

هذا ما يمكن أن يروجه أمثال هؤلاء الطلاب، وأن يملأوا به عقول زملائهم، وقد يخاف الطالب من أن يصفه زملاؤه بالجبان الذي يخاف الهروب من المدرسة.

خطوات نحو العلاج :

[١] دراسة الحالة :

لابد من دراسة حالة الابن الطالب جيدًا؛ لمعرفة الأسباب الحقيقية التي تقف من وراء كرهه للدراسة، أو هروبه من المدرسة، ولا يكفي أن نسأله فقط عن السبب؛ فقد يتحجج الطالب بأي حجة، أو يفتري سببًا غير حقيقي؛ ابتغاء الخلاص من الأسئلة الموجهة إليه؛ فقد يكون السبب محرجًا بالنسبة له، أو يمثل نقصًا لديه، أو عجزًا عن فهم شيء معين أو خوفًا من شيء؛ ولذلك فمن الضروري أن يسأل الأبوان عن حالة الطالب في المدرسة؛ فقد يكون لدى إدارة المدرسة علم بمشكلة معينة تكون هي السبب، أو يكون لدى زملائه علم بأمر ما يكون سببًا لذلك الأمر، ويجب أن يتعامل ولي الأمر مع الابن بعطف وحب، بدون أن يقسو عليه أو يُعنفه، بل يصاحبه، ويتودد إليه؛ حتَّى لا يخاف منه الابن خوفًا يدفعه لإخفاء حقيقة ما يدفعه لكره المدرسة، أو لما يقوم به من سلوكيات غير مرغوبة وغير صحيحة.

[٢] الحكمة والتدرج في معالجة الموقف :

معالجة مثل هذا السلوك تحتاج من الأب أو الأم إلى نوع من الحكمة وعدم التسرع؛ لأن الطريقة المتسرعة في العلاج قد تؤدي إلى آثار عكسية، لكن يجب أن يقوم الوالدان بإقناع الطالب بأن هذا السلوك مشين، وهو ليس الرد المناسب لما يشعر به، وأن خطورته ستلحق به عاجلاً أو آجلاً.

وعلى سبيل المثال: الطالب الذي يهرب من المدرسة بهدف الإحساس بالاستقلالية والحرية، ونحو ذلك من الأمور، يجب أن يفهم، أن هذا الذي يفعله يؤدي إلى عكس ما يريده؛ فإن هروبه من المدرسة يؤخر استقلاليته، ويُؤخر حريته التي يطلبها؛ لأنه سيؤدي حتمًا إلى تخلفه في الدراسة، ومن ثمَّ إلى تعطله الدراسي، أما اجتهاده ومذاكرته وتفوقه، فسوف يُعجل من حريته واستقلاله، واعتماده على نفسه؛ فتلك الاستقلالية المزعومة ما هي إلاَّ وهم؛ لأنه لا يملك شيئًا، ولا يزال يعتمد فعليًا على غيره.

ويجب على الوالدين أن لا يُبالغا في تقييد حرية الابن، وأن يسمحا له بالقدر اللازم والضروري من حرية الحركة حتَّى لا يشعر بالقلق والقيد.

[٣] تجنب القسوة والعنف :

يُخطئ من يظن أن العنف أو القسوة هي السبيل الأمثل لتقويم الأبناء؛ فقد يكون رد فعل الابن عنيفًا، وضارًا بمستقبله كما بينَّا آنفًا، وكذلك علاج الأخطاء وخصوصًا ما يتعلق منها بالدراسة يحتاج لمزيد من الرعاية والحب للأبناء، وليس مزيداً من القسوة والعنف، كما يحتاج لتلبية رغبات الأبناء المرحلية والمعقولة، وعدم التفرقة بينهم في المعاملة، وإعطائهم جزءاً من الوقت للتعرف على أحوالهم عن كثب، ومنحهم ما يحتاجونه من رعاية وحب واهتمام وتقدير، ومكافآتهم على ما يبذلون من جهد مخلص في الدراسة، وتشجيعهم على المزيد.

مشكلة عنف الأبناء

هل يمكننا اعتبار العنف الآن ظاهرة لدى الأبناء؟

لقد كثرت الشكوى في الآونة الأخيرة من عنف الأبناء، وسلوكهم التخريبي، وعدم المبالاة التي أُصيبوا بها، ولقد ساهمت عدة أمور في زيادة هذا العنف لاسيما برامج الأطفال التلفزيونية، والتي يتَّسم الكثير منها بالعنف، بل إن قطاعًا عريضًا من المجتمع الآن أصبح يُفضل أفلام العنف، ولا يدري أن هذه الأفلام قد تساعد بدرجة ما في زيادة العنف الحقيقي في المجتمع، خصوصاً عند الأطفال.

وإذا نظرنا إلى عنف الأبناء، وجدناه قسمين :

(أ) عنف يتولد تلقائيًا في مراحل مختلفة من العمر.

(ب) عنف قوي وغير طبيعي ويُمثل منعطفًا خطيراً.

أما القسم الأول : فيتمثل في عنف الأطفال، وثوراتهم الانفعالية، وأحيانًا قيامهم ببعض عمليات التخريب المتعمدة، وهذه كلها أمور بسيطة، وليست خطرة.

أما القسم الثاني : والذي يشمل العنف الموجه نحو الغير، والذي يصل إلى حد ارتكاب بعض الجرائم، وهذا العنف عادة ما يأتي من بعض الشباب والمراهقين.

ويمثل هذا العنف خطورة بالغة على المراهقين وعلى المجتمع ككل، ولعل أبرز صور هذا العنف؛ ما تناقلته وكالات الأنباء من حوادث قتل قام بها عدد من الطلاب في المرحلة الثانوية، ضد أعضاء من هيئة التدريس، وضد زملائهم؛ ولهذا يصبح هذا الموضوع جديراً بالبحث والدراسة من قبل المختصين، في

مجالات علم النفس والتربية على وجه الخصوص، ومن قبل كل من يرى نفسه معنيًا بهذا الموضوع على وجه العموم، سواء كان وليًا لأمر طالب أو أكثر، أو مسؤولاً عن الأمن والنظام أيًا كانت درجة مسؤوليته .

وقد تمت بالفعل دراسات عدة حول هذا الموضوع سنعرض لبعضها لاحقًا، وهذه الدراسات أكدت على عدة أمور:

[١] عنف الأبناء نتيجة مباشرة لعنف الآباء :

هل تعلم أيها الأب، وهل تعلمين أيتها الأم أن عنف أبنائكم قد يكون ردًا مباشرًا لما يُمارسه كل منكما عليهم من عنف؟؛ فالعنف لا شك يولد العنف، ومواجهة سلوكيات الأبناء بقسوة، لا تقلل من الأخطاء بقدر ما تجعل لديهم مخزونًا من الكراهية والعنف يكون مستعداً للانفجار في اللحظة المناسبة؛ ولهذا يجب أن يعلم الآباء أن العنف عند الأبناء، والثورات الانفعالية التي تظهر عليهم أحيانًا، قد تكون نوعًا من تفريغ الشحنات، يرتاحون بعدها، ولهذا يجب أن يتفهم الوالدان هذا الموضوع، ومعنى أنهما يتفهمان هذا الموضوع، يعني لا يقابلانه بعنف مثله، وليس معناه السكوت عن مثل هذا العنف إذا كان فيه إيذاء للآخرين، ولكن ليعالج هذا العنف بالأسلوب الصحيح الذي لا يولد مزيداً من العنف.

« وإذا نجح الطفل في استخدام العنف للحصول على ما يريد؛ بناءً على ما يراه من أن هذه الطريقة التي يتبعها الآخرون سواء ضده أو ضد بعضهم البعض؛ فإن هذا الطفل يكون بعد ذلك أميل إلى إيذاء الأطفال الآخرين عن عمد . . كذلك يساعد على زيادة السلوك العدواني في جماعة الأطفال عندما يكونون مكدسين في مكان ضيق للعب، وقد يحدث ذلك سواء في المنزل، أو عند أطفال الروضة؛ حيث يزداد الضرب والصياح والدفع والمعاكسة؛ ذلك أنهم في مثل هذه المواقف يتعرضون بدرجة أكبر لعدم سهولة الحركة والتداخل فيما بينهم، والإعاقة لحركة بعضهم البعض وهكذا.

ولهذا فقبل أن تلومي طفلك على عدوانه، عليك أولاً أن تُحاولي الوصول إلى السبب وراء هذا العدوان، فعندما تلاحظين أن طفلك بدأ في اتباع السلوك العدواني، فلا تبدأي بعقابه؛ لأن ذلك سوف يزيد من سلوكه العدواني، وبدلاً من عقابه :

- أظهري له عدم موافقتك على هذا التصرف.
- أكدي له أنه في حالة تغييره لهذا السلوك سوف تكافئينه، ونفذي ذلك بالفعل.
- وضّحي له أنه مهما كانت الظروف لا ينبغي أن يؤذي أي شخص آخر متعمداً، وأن عليه الاعتذار عن أي فعل أو حادث يصدر منه، ويتسبب في إيذاء أو إيلام أي شخص آخر، على أنه يجب أن تتذكري في نفس الوقت أن هذه النصيحة لن تكون مجدية أو ذات أثر ما لم يتبعها جميع أفراد الأسرة ويطبقونها فعليًا أمام الطفل.
- وضحي للطفل أن له الحق في استخدام جسمه؛ ليعبر عن مشاعره، ولكن ليس من حقه استخدام جسمه في إلحاق الأذى بأي شخص آخر.
- خذي بيد طفلك المعتدي، ووجهي له بعض العبارات مثل: أعرف أنك غاضب، ولكننا لا نؤذي أحداً؛ لأن الإيذاء كالضرب أو العض أو غيره؛ شيء مؤلم، وأنت لا ترضى أن يؤلمك أحد، وكذلك يجب أن لا تؤلم أحداً.
- تذكري أنك أكبر حجمًا، وأكثر قوة من الطفل، ولذلك فليس من الضروري بالنسبة لك أن تؤذيه؛ لكي تمنعيه من إيذاء أو ضرب الغير، يكفي أن تمنعيه وتبحثي له عن طريقة أخرى يستطيع أن يمتص بها غضبه.
- وضّحي للطفل أنك لا تستنكرين شعوره بالغضب، ولكنك تستنكرين بشدة الطريقة المؤلمة التي يتبعها للتعبير عن غضبه » (١) .

(١) « دليل الوالدين إلى تنشئة الطفل » للدكتور / محمد عماد الدين إسماعيل، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب (٢٠٠١م).

تلك النصائح السابقة التي قدمها لنا الدكتور / محمد عماد، وغيرها يمكنها أن تقلل وبدرجة كبيرة، ظاهرة العنف الطبيعية عند الأطفال خصوصًا أطفال ما قبل المدرسة.

[٢] عنف أطفال المدارس ومعالجته:

ويواجه القائمون على العملية التربوية في المؤسسات الحكومية وغيرها، أيضًا نوعًا من العنف من قبل الطلاب، سواء في المرحلة الابتدائية، أو في المرحلتين الإعدادية والثانوية، وقد تختلف حدة هذا العنف، ونوعيته باختلاف المراحل العمرية المختلفة، كما أنه قد يساعد سلوك المعلمين في زيادة حدة هذا العنف، وقد تساعد أيضًا الطريقة الخطأ التي يتبعونها في معالجته، قد تساعد هذه الطريقة في زيادته وقوته، ولهذا يصبح واجبًا على المعلمين أن يتفهموا سلوك العنف الموجه من قبل الطلاب لزملائهم، ولغيرهم، ويتعاملوا معه بطريقة جيدة وصحيحة.

وفي هذا الموضوع توجه الدكتورة/ سعدية محمد بهادر النصائح للمعلمة التي قد تواجه بنوع من العنف أو التخريب من قبل إحدى الطالبات. فنقول:

«يجب على المعلمة أو الأم أن لا توجه إلى الطفلة التي تعمدت كسر شيء، أسئلة تستفسر بها عن الأسباب التي جعلتها تكسر هذا الشيء أو ترغب في إتلافه؛ لأنه من الواضح أن هذا العمل هو مجرد تعبير صريح عن الميول العدوانية التي تعاني منها هذه الطفلة، كما أنه إظهار منها لعدم احترامها للنظام، وعدم طاعتها لك، ورغبتها في التمرد عليك.

وإذا أردت البحث عن الدوافع والأسباب التي أدت إلى ارتكاب الطفلة لمثل هذا العمل؛ فعليك أولاً مناقشة هذا الموضوع مع نفسك، وتوجيه هذا الاستفسار إلى شخصك أنت ... بعد ذلك حاولي الاستماع إليها وأعطيها الفرصة للتعبير عن مشاعرها، وظروفها أو ما تكنه نفسها، وابحثي عما يزعجها أو يؤلمها مما أدى

لمثل هذا التصرف منها . . وأفسحي المجال والقرصة أمامها، وأمام غيرها للتعبير عما يدور بنفسها، ومما تعاني منه .

ومن المهم أن تمكني الطفلة التي تعاني من هذا الشعور، والتي ترغب في الانتقام، أو تشعر بالقلق، والتوتر من التعبير عن نفسها أو مشاعرها، وأن تعرفي جيداً ظروفها المنزلية، وما تعانيه من صراعات؛ فهذا هو الطريق الوحيد أمامك للتخلص من هذا الغضب، والتنفيس عن الكبت والعدوان، وإظهار المشاعر .

ثم اطلبي بعد ذلك من هذه الطفلة أن تتحمل نتائج ما قامت به من أعمال تخريبية . . كأن تطلبي منها تحمل ثمن ما كسرته أو أتلفته من مصروفها الخاص، أو إصلاحه على حسابها الخاص؛ لأن مثل هذا الأسلوب هو خير أسلوب لمنع ارتكاب مثل هذه الأعمال أو غيرها بغرفة الصف أو البيت أو أي مكان آخر .

وبعد ذلك يجب عليك عدم تجاهل مشاعر مثل هذه الطفلة . . كما يجب عليك عدم إهمالها، بل وجهي الإهتمام والانتباه لها ولتصرفاتها؛ لأنها مازالت تُعاني من ثورة الغضب، وقد يكون في نفسها شيء من آلام الحقد أو الغيرة أو الكراهية، وربما تتمكن بأسلوب أو بآخر من علاج مشكلاتها، وتمكينها من التخلص من الآلام التي تعاني منها، والتي تسبب لها المشاكل والأضرار مستقبلاً » [1] .

العنف وبرامج التلفزيون :

لا شك في أن برامج العنف التي تبث على شاشات التلفاز، قد ساهمت في زيادة حدة العنف لدى الأطفال والشباب، وقد أجريت دراسات عديدة حول هذا الموضوع كان من أبرزها ما قامت به الباحثة الأمريكية « ماري وين » حيث بحثت تأثير التلفزيون على الأطفال بصفة عامة، وعلى ظاهرة العنف لديهم

(١) « دليل الآباء والمعلمين في مواجهة المشكلات اليومية للأطفال والمراهقين » د/ سعدية محمد بهادر، ط مؤسسة الكويت للتقدم العلمي (١٩٨٤م) .

بصفة خاصة، **وكان مما أوردته قولها:**

«لقد أجريت دراسات في هذا الموضوع بناءً على طلب الكونجرس الأمريكي في الأعوام (١٩٥٤، ١٩٦١، ١٩٦٤، ١٩٧٠، ١٩٧١)، وحينما نُشر تقرير إدارة الصحة العامة عن التلفزيون والسلوك الاجتماعي خصصت أربعة من مجلداته الخمسة للدراسات التي تناولت تأثيرات مشاهدة برامج العنف التلفزيونية، والواقع أن معظم الندوات والمقالات والدراسات التي تعرض لتأثيرات التلفزيون في الأطفال تُركز بحثها على هذه المسألة وحدها...

وفي حين توصّل التحديث الذي أجرته الحكومة الفيدرالية في عام (١٩٨٢) على تقرير إدارة الصحة العامة الصادر في (١٩٧٢) إلى وجود دليل بالفعل على أن العنف (الزائد) على شاشات التلفزيون يؤدي مباشرة إلى سلوك عدواني وعنيف بين الأطفال والمراهقين» [١] .

ويسهل على الرجل العادي إدراك العلاقة المباشرة بين مشاهدة برامج تتمتع بخاصية ما أو بسلوك معين، ومدى تأثير ذلك على المشاهدين، سواء كان هؤلاء المشاهدون كباراً أم أطفالاً صغاراً، وبالطبع يكون التأثير على الأطفال الصغار أشد، وعلى سبيل المثال حين يشاهد الأطفال برنامجًاأو فيلمًا يحكي عن فضيلة الصدق، ويُبين أهميته ومنزلته، وجزاء الصادقين، وعقاب الكاذبين.. أليس ذلك يكون عونًا لهم على الصدق، وناهيًا لهم عن الكذب؟، كذلك لو أكثر الأطفال من مشاهدة برامج العنف؛ فإن هذا سيجعلهم يتَّسمون بالعنف، بل ويخرجون بشحنات عنف كبيرة تحتاج إلى تفريغ؛ فتجدهم بعد الإنتهاء من مشاهدة أفلام العنف ، يضرب بعضهم بعضًا، ويُؤذي بعضهم بعضًا.

هذا فضلاً عما تُمثله تلك الأفلام بالنسبة لهم من انفصال عن الواقع، والعيش في واقع افتراضي، قد يساعد هذا في تشويه الواقع بالنسبة لهم،

---

(١) «الأطفال والإدمان التلفزيوني» ماري واين، ترجمة / عبد الفتاح الصبيحي، عالم المعرفة العدد (٢٤٧) (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م)

وبالنسبة للمضطرين منهم بصفة خاصة، وهذا ما أكدته (ماري وين) نقلاً عن اختصاصيين في علاج الأطفال، إذ يخرج هؤلاء بفكرة غير حقيقية عن الواقع ، الواقع الذي يعيشونه، فيتصور بعضهم أنه يستطيع أن يطير في الهواء أو يمشي على الماء، وغير ذلك من الخيالات التي يرونها.

بل إن برامج العنف التلفزيونية متهمة بأنها قد ساهمت في إنشاء جيل جديد من الأطفال، لا يعبأون بالعنف، ولا بالكثير من الجرائم التي يرتكبونها، ولا يعبأون كذلك بمشاعر الآخرين، وهذه مصيبة كبرى، تنذر بخروج مجرمين إلى المجتمع من نوع فريد يتعاملون مع الناس «كما لو كانوا على شاشة التلفزيون، فيمكنهم التخلص منهم ببساطة تامة بمطواة أو بندقية أو سلسلة، وبقليل من الندم، كأنهم يغلقون جهاز التلفزيون» [1] على حد تعبير (ماري وين).

ولهذا فإنه مما يجب الحذر منه إطلاق العنان للأطفال في مشاهدة ما يشاءون من برامج التلفزيون؛ فلذلك أشد التأثير على سلوكياتهم في المستقبل، فهل ينتبه الآباء لمثل هذا الخطر، ويتعاملون معه بشيء من الحكمة؟! أم أنهم يفرحون لانصراف أولادهم عنهم وانشغالهم بمشاهدة التلفزيون، بغض النظر عما يشاهدونه من برامج قد تحوي عنفًا أو غيره.

نعم، قد يرتاح الأبوان في المنزل من عبث الأطفال، ومن تلك الضوضاء التي يحدثونها، والتي تنطفئ نارها بمشاهدتهم هذا الجهاز وهم جالسون كأن على رؤوسهم الطير، لكن هذه الراحة المؤقتة قد تأتي فيما بعد على حساب أخلاق الأولاد، وتنشئتهم تنشئة غير سوية؛ علمًا بأننا لو حددنا الساعات والبرامج التي ينبغي أن يجلس أطفالنا حينها أمام التلفزيون، لو فعلنا ذلك لتعود الأطفال عليه، ثم لجأوا إلى الألعاب الأخرى المفيدة، والتي هي بلا شك أكثر فائدة من برامج التلفزيون.

---

(١) المصدر السابق .

إن ظاهرة العنف اليوم انتشرت انتشاراً واسعًا حتى أصبح الكثير من الكبار يفضلون مشاهدة أفلام العنف والرعب على غيرها من الأنواع الأخرى، ولهذا فإن الأطفال معذورون في مشاهدتهم لبرامج العنف؛ إذ أنهم يرون الكبار شغوفين بها، وهم بالنسبة لهم القدوة والأسوة، فإذا أراد الكبار منع هذه السلوك؛ فإن عليهم أن يتوقفوا هم أولاً عن مشاهدة مثل هذه البرامج علمًا بأن هذه البرامج وتلك الأفلام تُؤثر تأثيرًا سلبيًا على نوم الطفل، وتُؤدي إلى اضطرابات النوم عند الأطفال.

العادة السرية وكيف نعالجها

العادة السرية عادة مرذولة يلجأ إليها بعض المراهقين والمراهقات؛ بهدف الحصول على اللذة، هذه اللذة مؤقتة يعقبها نوم طوبل وتأنيب ضمير، والعادة السرية كما يعرفها البعض هي «فعل يقصد به الحصول على اللذة الجنسية بغير الجماع» ويسميها فقهاء المسلمين (الاستمناء) وهو إخراج المني عن قصد؛ بهدف الحصول على اللذة الجنسية.

ولهذه العادة المرذولة أضرار، بالغ البعض في وصفها حتَّى جعلها سببًا رئيسًا لكثير من الأمراض العضوية، وجعلها سببًا في تدمير أجهزة الجسم، وقواه، وأجهزته الدفاعية، والحقيقة أن لهذه العادة أضراراً لا يمكن إنكارها، وإن لم تصل لتلك الدرجة المبالغ فيها، لكن لا أحد يُنكر أن لها أضراراً صحية ونفسية كبيرة وخطيرة.

وقد تتجاوز أضرارها النفسية تلك الأضرار الجسيمة؛ فقد يصاب من يمارس هذه العادة ويستغرق فيها؛ قد يصاب بالاكتئاب والعزلة، وقد تُصيبه بعض الهلاوس، كما أنه يُصبح فاقداً للثقة بالنفس، وتتكون لديه اتجاهات سلبية نحو حياته الحاضرة والمستقبلة، ونحو المجتمع، مما قد يُساعد في انحرافه، وربما في فشله دراسيًا إن لم ينحرف أخلاقيًا.

ولقد حاول البعض التقليل من شأن تلك الأضرار، والتهوين من شأن تلك العادة المرذولة، مُدّعين أنه ينبغي عدم التدخل في حياة المراهقين، وأن نتركهم وشأنهم، يرضون رغباتهم ويشبعونها كيفما يرون، وبالوسائل التي تروق لهم، ولم تكن هذه الدعوة من أولئك النفر القليل موجهة للآباء فحسب، بل حاولوا ترويجها للمجتمع كله؛ حتَّى يهونوا أمر تلك العادة على الشباب، فلا يشعر الشباب بالحرج حين يفعلها، ولا يحاول التخلص منها .

وهؤلاء المدافعون عن تلك العادة مأجورون من قبل منظمات غربية؛ هدفها إفساد الشباب الذين هم عدة الأمة وذخيرتها، ومكمن القوة والطاقة فيها؛ والدليل على ذلك أنهم قد بدأوا بالكلام على تلك العادة، والتقليل من شأن خطورتها، ثم تدرجوا بالناس حتَّى وصلوا بهم إلى التقليل من شأن الزنا، واعتباره أمرًا طبيعيًا، و(غلطة) بسيطة، يمكن معالجتها بكل سهولة، والتخلص من آثارها، وهذا بلا شك ساهم ويساهم في انتشار هذه الجرائم على مستوى واسع وكبير بين الشباب والفتيات، بصور مختلفة، حتَّى أصبحت نسبة غير قليلة من الشباب يُقيمون علاقات مع أمثالهم من الفتيات، وهذا - لعمري - نذير من نذر انهيار المجتمع، وتحطمه، وسبب لنزول النقم، وزوال النعم، واستحقاق العقاب الإلهي .

ولهذا أصبحت محاربة هذه العادة المرذولة على درجة كبيرة من الأهمية؛ نظرًا لاعتبارها مقدمة لما هو أخطر منها، وأنها باب من أبواب الشيطان، إن ملك زمامه، سهل عليه باقي الأبواب، كما أن تلك العادة بلا شك تستنفذ طاقة الشباب، فيما هو ضار غير نافع لهم، وتتسبب لهم في الضعف العام والهزال، وإصابتهم بالخمول والكسل، وشرود الذهن والعزلة والاكتئاب، ونحو ذلك، مما يساهم في تدمير إمكانياتهم، وقتل إبداعاتهم؛ لذلك كله يصبح من الضروري مناقشة أسباب تلك العادة وطرق التخلص منها، وحماية أبنائنا من الوقوع في براثنها.

الأسباب والعلاج :

[١] الفراغ والبطالة:

من أهم أسباب تلك العادة، وقوع الشباب فريسة الفراغ والبطالة، فلا يجد ما يفعله، فيسرح ويشرد تفكيره مع أحلام اليقظة، ويتخيل ما يساعده على الوقوع فريسة تلك العادة.

وقديمًا قال بعض السلف: «نفسك إن لم تشغلها بالحق، شغلتك؛ بالباطل» .

ولهذا كان الفراغ مفسدة للشباب، وأي مفسدة! ولهذا يجب على الآباء أن ينتبهوا لمثل هذا الأمر؛ فيساعدوا الشباب على العمل، وشغل وقت الفراغ بما هو نافع ومفيد، ومن الأشياء المهمة في هذا المجال تشجيع الأبناء على ممارسة أنواع مختلفة من الرياضة؛ حيث أنها تشغل وقت الفراغ لديهم، كما تساعدهم في بناء أجسامهم، و تستنفذ طاقاتهم، وتُكوّن لديهم اتجاهات إيجابية نحو أنفسهم وتمنحهم الثقة بالنفس، والقدرة على اتخاذ القرار، وتنمي فيهم روح المنافسة الشريفة؛ فتشجعهم على التفوق، والعمل والجد والاجتهاد.

[٢] الأفلام والصور المخلة :

يجب إبعاد الأبناء، وبخاصة المراهقين منهم عن كل وسائل الإثارة الجنسية، لا سيما الأفلام الهابطة، والصور المخلة؛ حيث أن تلك الأمور تؤجج لديهم نار الشهوة، ومن ثم يسعون نحو إشباعها بأية طريقة ممكنة، وليعلم الآباء أن هناك تدبيراً معلناً وليس سرياً، من قبل الدوائر الصهيونية العالمية، هذا التدبير يهدف لإغراق الشباب في الجنس، والشهوة المحرمة؛ من أجل سهولة قيادته، وتوجيهه نحو ما يريدون من أهداف، ومن أجل تدمير أخلاق الشباب المسلم؛ حتَّى لا يكون هدفه إلا الشهوة، فلا يدافع عن الأرض، ولا يذود عن العرض.

كما أن الإمبريالية الغربية تسعى جاهدة لنشر ثقافتها الجنسية، عن طريق ما يسمى بالعولمة الثقافية؛ لفرض فلسفتها على العالم كله، لا سيما على العالم الإسلامي؛ لأنه الذي يملك الحضارة الحقيقية التي تستطيع أن تقف في وجه حضارتهم، فتهزمها، ويستخدمون لذلك كل الوسائل الممكنة من إعلام وصحافة، وغير ذلك.

لذلك يجب على الآباء أن يحذروا تلك الأمور، فيحذرون الإعلام الموجه، وخصوصاً القنوات الفضائية المنحلة، والتي لا همَّ لها إلاَّ عرض الصور الفاضحة والأغاني الماجنة، والرقصات المخلة، ونحوها، وعلينا أن نحمي أبناءنا على الأقل في المنزل من مثل تلك الأمور.

أما الأب الذي يترك لأولاده (الدش) فيشاهدون فيه ما يشاءون، فهو أب غير مسؤول، يدفعهم نحو الانحراف والرذيلة، يجب عليه أن يقوم بإلغاء ما يراه فاضحًا من القنوات، ولا يبقي سوى الهادف منها، ولا يقول مثلاً: إنني قمت بتربية أبنائي تربية جيدة، وهم لن يشاهدوا ذلك..

كلا، فالنفس البشرية لا تزال تتطلع إلى ما يستثير شهواتها، والشيطان يقف لابن آدم بالمرصاد، والشباب خصوصًا لديهم شهوة عارمة، وقد لا يستطيعون التحكم فيها، وهل يجوز أن نضع النار بجانب (البنزين) ولا نخشى الحريق؟!، ولهذا كرَّم الإسلام كل ما من شأنه أن يساعد في إثارة الشهوة، بدءً من النظرة المحرمة، قال الله تعالى: ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا** ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

وصدق القائل:

كل الحوادث مبدؤها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر

وحتَّى الخلوة المحرمة؛ حيث لا يحل لرجل أن يخلو بامرأة تحل له؛ حيث قال رسول الله ﷺ: «**لا يخلونَّ رجل بامرأة إلاَّ مع ذي محرم**»، وقال ﷺ: «**إيَّاكم والدخول على النساء**» فقال رجل: يا رسول الله، أرأيت الحمو؟، فقال ﷺ: «**الحمو الموت**».

وقد يرى البعض أن في هذا نوعًا من التشدد، بالنظر للحضارة الغربية، لكنه بنظرة منصفة يجد أن ذلك هو الحق، وأنه حماية للمجتمع من الوقوع في الرذيلة التي وقع فيها الغرب، ربما بكل طوائفه.

[٣] الاختلاط المستهتر:

ومما يؤجج نار الشهوة في نفوس الشباب هذا الاختلاط المستهتر الذي نراه في صفوف الشباب والفتيات في الجامعات؛ حيث التلامس والمصافحات، وما

خفي كان أعظم، هذا الاختلاط الغير منضبط بضوابط الشرع الحنيف، يؤتي ثمرته المدمرة، ويستثير نيران الشهوة لدى الجنسين خصوصًا في مرحلة المراهقين.

ومع وجود العوامل المساعدة الأخرى المذكورة آنفًا، قد لا يجد الشباب غير اللجوء لتلك العادة لإطفاء نار الشهوة الموقدة بين جنباتهم ، وقد تكون تلك العادة عندئذ أخف الضررين، لكن الحماية الحقيقية تكمن في عصمة هؤلاء الشباب من هذا الاختلاط المستهتر وتحديد العلاقة بين الشاب والفتاة، خصوصًا في هذه المرحلة الحرجة من العمر.

[٤] أصدقاء السوء :

قد يتعلم الشاب هذه العادة أصلاً من أصدقائه وأترابه، بل وقد يشجعونه عليها؛ ولهذا يجب على الآباء أن يرشدوا الأبناء لأصدقاء الخير، ويبعدوهم عن أصدقاء السوء، وقد سبق الحديث عن موضوع الأصدقاء وأهميته، ونركز هنا على خطورة تعلم الشاب هذا الموضوع من أصدقائه، ثم وقوعه فريسة له، وعدم قدرته على التخلص منه بعد ذلك، وفي هذا آثار سيئة جداً على الشاب وعلى صداقاته حاضرًا ومستقبلاً .

[٥] إصابة المراهق ببعض الأمراض الجلدية :

قد تنشأ العادة السرية أصلاً لدى بعض الشباب نتيجة إصابته ببعض الأمراض الجلدية، والتي تتسبب له في حكة بتلك الأعضاء، ومن ثم يعبث بأعضائه التناسلية، فيجد لذة من ذلك ثم يتطور الأمر لحدوث تلك العادة.

ولهذا يجب على الآباء معالجة الأبناء علاجًا ناجعًا لما يعرض لهم من أمراض خصوصًا تلك الجلدية، حماية لهم من العبث بأعضائهم التناسلية؛ خشية الوقوع في تلك العادة.

[٦] أسباب أخرى :

(أ) **ارتداء الملابس الصوفية**: وهي تساعد في الحكة ، وتعمل على تدفئة المناطق الحساسة، مما قد يساعد على تسبب الإثارة للشباب.

(ب) **الملابس الضيقة** : تعمل نفس العمل بالنسبة للشباب والفتيات، وتساعد في التهيج والإثارة، مما قد يدفع لممارسة تلك العادة، حتَّى وإن كان عن غير قصد في البداية.

(جـ) **تناول الأطعمة الحريقة** : هذه الأطعمة، ومنها التوابل، تساعد في تهيج الشهوة؛ لذا ينصح بعدم تناولها للشباب بصفة خاصة؛ حرصاً على عدم تعرضه للمثيرات المختلفة.

(د) **الشاى والقهوة والمشروبات الغازية** : يُستحسن عدم الإكثار من هذه الأمور؛ لأنها تعمل على إدرار البول، وقد لا تساعد الظروف الشاب في سرعة التبول، فيعمل ذلك على انتصاب القضيب، فيساعد في إثارته، مما قد يؤدي إلى ممارسة تلك العادة ولو عن غير قصد في البداية.

(هـ) **النوم على البطن** : من أسوأ العادات لدى بعض الشباب النوم على البطن؛ حيث يساعد ذلك في الإثارة، وفي ممارسة تلك العادة، ولهذا فقد حذر الإسلام من هذه العادة، ونصح بالنوم على الجانب الأيمن، بل ونهى عن النوم على البطن، وقال الرسول ﷺ لمن نام على بطنه: «**هذه نومة لا يحبها الله ورسوله**» .

وفي الحديث الصحيح: «كان رسول الله ﷺ يبتدئ بالنوم على اليمين مستقبلاً القبلة» [١] .

(و) **الأرق والتقلب على الفراش** : ينصح بأن يقوم الشاب من فراشه عند استيقاظه مباشرة؛ لأن أرقه، وتقلبه على فراشه، يسمح له بأحلام اليقظة، ومن ثم جعله فريسة للشيطان، وللأفكار الخبيثة، وهو في وضع يسمح له بممارسة تلك العادة، واستيقاظه المباشر يقطع تلك الأفكار.

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

المراجع

[١] « تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن » ط دار الشعب (١٣٧٢هـ) تحقيق / أحمد عبد العليم البردوني .

[٢] « تفسير الطبري » ط دار الفكر – بيروت (١٤٠٥هـ) .

[٣] « تفسير ابن كثير » ط دار الفكر – بيروت (١٤٠١هـ) .

[٤] « إحياء علوم الدين » دار مصر للطباعة (١٩٩٨م) .

[٥] « ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده » د / يوسف القرضاوي، ط مكتبة وهبة (١٩٩٣م) .

[٦] « المرأة بين الفقه والقانون » ط دار السلام (١٩١٨هـ) .

[٧] « التفكك الأسري الأسباب والحلول » لمجموعة من الباحثين – كتاب الأمة العدد (٨٣) .

[٨] « دليل الوالدين لتنشئة الطفل » د / محمد عماد الدين إسماعيل، الهيئة المصرية العامة للكتاب (٢٠٠١م) .

[٩] « كيف تفهم الجنس الآخر » إيفات كرستيان، ترجمة / محمد خالد، الحرية للنشر والتوزيع (١٩٩٧م) .

[١٠] « دليل الآباء والمعلمين في مواجهة المشكلات اليومية للأطفال والمراهقين » د / سعدية محمد بهادر، ط مؤسسة الكويت للتقدم العلمي (١٩٨٤م).

[١١] « الأطفال والإدمان التلفزيوني » ماري وين ، ترجمة / عبد الفتاح الصبيحي، عالم المعرفة العدد (٢٤٧) (١٤٢٠هـ) .

[١٢] « تربية الطفل ونفسيته » د / رياض محمد عسكر، مطابع رمسيس – إسكندرية .

[١٣] « كيف تتفاهم مع الوالدين » د / جلاس جارونر جنكر وجوي نيرمان، ترجمة عقيد / سيد عبد الحميد مرسي، إشراف د / عبد العزيز القوص، ط مكتبة النهضة المصرية (١٩٦٠).

[١٤] « حديث إلى الأمهات » د/ بنجامين سبوك، ترجمة / منير عامر.
[١٥] « السلوك الإنساني » د/ انتصار يونس، ط دار المعارف (١٩٧٢م) .
[١٦] « الشباب الجامح » أوجست أيكهون، ترجمة/ سيد محمد غنيم، مراجعة د/ إسحاق رمزي، ط دار المعارف (١٩٦٠).
[١٧] « علم النفس والحياة » ماندر، ترجمة د/ نظمي خليل، دار الكتب المصرية (١٩٣٨م) .
[١٨] « النهاية في غريب الأثر » لابن الأثير، ط دار الفكر – بيروت (١٣٩٩هـ).
[١٩] « مشكلات الأطفال اليومية » د/ دجلاس توم، ط دار المعارف (١٩٥٨م).
[٢٠] « توجيه المراهق » د / دجلاس توم، ط مكتبة النهضة المصرية (١٩٥٧) .
[٢١] « كيف نساعد الأطفال على تنمية قيمهم الخلقية » د/ أشلي سونتاجيو، ترجمة / سامي علي الجمال، مراجعة د/ عبد العزيز القوصي، مكتبة النهضة المصرية (١٩٥٩م).
[٢٢] « كيف نعيش مع الأطفال » أديث نيو، وآخرون ترجمة/ سامي علي الجمال، إشراف د/ عبد العزيز القوصي، ط مكتبة النهضة المصرية (١٩٦٠م) .
[٢٣] « التفكير علم وفن » هنري هازلت، ترجمة د/ حامد العبد (١٩٧٥م) .
[٢٤] « عالم الطفل » فيلبس هوسلر، ترجمة / رمزي يس، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩٩م).
[٢٥] « فن الحياة مع المراهق » د/ بنجامين سبوك، ترجمة / منير عامر، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب (٢٠٠١م) .



فهرس